Arab World Journal of Humanities and Social Sciences (AWJHSS)

Volume 01, Issue 01, September 2025

مجلة العالم العربي للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 1، العدد 1، سبتمبر 2025

البحث العلمي بين الموسوعية والتخصصية والدراسات البينية والتكامل المعرفي (دراسة نقدية مقارنة)

د. يحيى أحمد حسين المرهبي

قسم العلوم التربوية والنفسية، كلية العلوم التطبيقية والإنسانية، جامعة عمران

الجمهورية اليمنية

almerhbi2010@gmail.com

https://orcid.org/0009-0008-4373-8781

Article History
Received: 8/8/2025
Accepted: 23/9/2025
Published: 24/9/2025

الملخص

هدف البحث إلى التعرف على طبيعة البحث العلمي بين الموسوعية والتخصصية والدراسات البينية والتكامل المعرفي، ولتحقيق هذا الهدف استخدم الباحث المنهج الوصفي، من خلال دراسة نقدية مقارنة، تبين المكانة والأهمية التي يحتلها كل اتجاه، وما المميزات التي يمتاز بها، وما طبيعة الانتقادات التي وُجّهت إليه، خاصة وهناك اتجاه وميل واضح . في الوقت الحاضر . للبحوث العلمية ذات الاتجاه البيني، على حساب الاتجاهين الآخَرين (الموسوعية والتخصصية)، ولأن الإنتاج العلمي والمعرفي هو إبداع وريادة وتفوق وتميُّز، فإن أي اتجاه يحقق هذه الصفات سيكتب له البقاء، وسيكون قِبلَةً للباحثين الذين يسعون إلى إنتاج بحوث ذات قيمة عالية في مستواها العلمي، وذات فائدة واضحة في مجالها التطبيقي. وثمَّة نماذج رائدة في تراثنا القديم والحديث، ما ذاع صيتها، وما لمع نجمها إلا لكونها قد جمعت بين (الموسوعية والتخصص) في مجال معين من المجالات؛ ومن ثم فقد اتسمت بالشمولية ولم تعدم العمق، ولهذا جمع بعض هؤلاء العلماء بين لقبين أو أكثر، كأبي حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، وابن سيناء الفيلسوف والعالم والطبيب، كما جمع بعضهم بين التاريخ والفلسفة والأدب وعلم الاجتماع كابن خلدون. وإذا كان الاتجاه نحو التخصص الدقيق هو السِّمة الغالبة على البحث العلمي والتفكير العلمي حتى منتصف القرن العشرين، فإن آليات العولمة وتفجر الثورة المعلوماتية قد فرضت على العالم المعاصر توجهات مغايرة، تؤكد على وحدة المعرفة، وأهمية التكامل المعرفي بين التخصصات، فيما أطلق عليه اصطلاح الدراسات البينية (Interdisciplinary)، حيث تحظى العلاقات البينية بين التخصصات المختلفة بأهمية ملحوظة في المعرفة الإنسانية الحديثة، نظراً للتطور المتسارع في ميادين المعرفة ومجالات البحث العلمي ومناهجه، والتحولات الكبرى في كافة ميادين المعرفة. ويمكن القول إن الدراسات البينية مرحلة من مراحل تطور العلم، تلت مرحلتي الموسوعية والتخصصية، وصولا إلى التكامل المعرفي بين العلوم، وعدَّها البعض بمثابة الطريق الثالث بعد أن سلك البحث العلمي سبيلين سابقين: الموسوعية الشاملة، ثم التخصص المنعزل. وقد توصل البحث إلى عدد من النتائج والتوصيات أدرجها في نهاية هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: البحث العلمي، الموسوعية، التخصصية، الدراسات البينية، التكامل المعرفي، نقدية، مقارنة

Scientific Research: Encyclopedia, Specialization, Interdisciplinary Studies, and Cognitive Integration (A Critical Comparative Study)

Dr. Yahya Ahmed Hussein Al-Marhabi

Department of Educational and Psychological Sciences, College of Applied and Human Sciences,

Amran University - Republic of Yemen

almerhbi2010@gmail.com

https://orcid.org/0009-0008-4373-8781

Abstract

This research aims at identifying the nature of scientific research between encyclopedism, specialization, interdisciplinary studies, and cognitive integration. Through a comparative critical analysis, the researcher employed the descriptive approach to show the status and significance of each trend, its benefits, and the nature of the critiques directed against it. Evidently, there is currently a definite trend and tendency toward interdisciplinary study at the expense of the other two trends (encyclopedism and specialization). And because scientific and knowledge production is creativity, leadership, excellence and distinction, any trend that achieves these qualities will survive, and will be a magnet for researchers who seek to produce research of high value in its scientific level, and of clear benefit in its field of application. In both our ancient and modern times, there are examples of trailblazing figures whose fame grew and whose star shone only because they combined (encyclopedism and specialization) in a particular field. Some scholars combined two or more titles, as Abu Hayyan al-Tawhidi, the author of philosophers and literary philosopher, and Ibn Sina, the philosopher, scientist, and physician. Others, like Ibn Khaldun, combined history, philosophy, literature, and sociology. Up until the middle of the 20th century, the trend towards precise specialization becomes the defining aspect of scientific thinking. The dynamics of globalization and the explosion of the digital revolution have imposed several trends on the modern world, highlighting the unity of knowledge and the significance of integrating knowledge across disciplines in what was formerly referred to as interdisciplinary studies. The interrelationships between the different disciplines are of remarkable importance in modern human knowledge due to the rapid development in the fields of knowledge, the scientific research and its methods, and the major transformations in all fields of knowledge. It can be said that interdisciplinary studies are a stage in the development of science, following the encyclopedism and specialized stages, leading to cognitive integration between sciences. Some consider it the third way after scientific research took two previous paths: comprehensive encyclopedism, then isolated specialization. The research reached a number of results and recommendations, which are included at the end of this research.

Keywords: scientific research, encyclopedism, specialization, interdisciplinary studies, cognitive integration, critical, comparative.

مقدمة:

يتميز علم التربية بأنه علم يقوم على نتائج العلوم الأخرى، إذ لم يستطع أن ينفصل بنتائجه عن هذه العلوم، ولا سيما علم النفس التربوي، وعلم الطفولة وغيرها من العلوم البينية. ويلاحظ هنا أن العلوم التربوية هي في معظم الأحوال علوم بينية تتأرجح بين مجالين مثل علم الاجتماع التربوي وتاريخ التربية. والبحث العلمي في التربية الإسلامية خاصة؛ يعدُّ أحد ميادين الدراسات المتداخلة، الذي تتعاون فيه الكثير من التخصصات.

وعبرة الماضي، وخبرة الحاضر، ونظرة المستقبل، كلها توحي بأن يكون عند أهل العلم وحملته رحابة في فهم معنى العلم والمنهج العلمي، وتسامح في تقويم التصورات والمناهج المغايرة، لتصوراتهم ومناهجهم، وتقبل لحقيقة أن العلم كثير متنوع متجدد كثرة وتنوع وتجدد الحياة، وإن الحياة لتتفتح أمام بصيرة رجل العلم بقدر رحابة نظرته، وتسامح معياره، وتقبله التعدد، ذلك لأنه يكون متناغما مع خاصيتين أصيلتين من خواص الحياة، ألا وهما التنوع والتجدد، رحابة التنوع، واتساع التجدد. (فان دالين، 1997م،5 مقدمة د. سيد أحمد عثمان، لمحة إلى ما وراء المنهج).

والعلم يسير، على نحو متزايد، في خطين أو طريقين متضادين، وأن كان كل منهما لا يقل ضرورة عن الآخر. فالعلم يتجه إلى المزيد من التخصص، مما يؤدي إلى تضبيق النطاق الذي يدور في داخله تفكير العالم واهتمامه، ولكنه يكتسب في الوقت ذاته أهمية إنسانية واجتماعية متزايدة، مما يحتم على المشتغلين به أن يمتدوا بأنظارهم إلى الآفاق الإنسانية الواسعة. وكلتا الحركتين، كما هو واضح، مضادة للأخرى. (زكريا، 1978م، 235). واليوم من النادر أن نجد باحثا أحادي التكوين، لأن طبيعة البحث خصوصا في العلوم الإنسانية يفرض عبورا مستمرا إلى تخصصات عديدة، وطبيعة مواضيع البحث في العلوم الإنسانية لا يمكن مقاربتها موضوعيا من غير آليات منهجية متعددة المشارب.

وقد مرت العلوم بشتى أنواعها بعدة مراحل: مرحلة الموسوعية، ومرحلة التخصصية، ومرحلة الدراسات البينية، ومرحلة التكامل المعرفي. وقد كان الاتجاه نحو التخصص الدقيق هو السمة الغالبة على البحث العلمي والتفكير العلمي حتى منتصف القرن العشرين، إلا إن آليات العولمة وتفجر الثورة المعلوماتية قد فرضت على العالم المعاصر توجهات وأفكار مغايرة تؤكد على وحدة المعرفة وأهمية التكامل بين التخصصات فيما أطلق عليه اصطلاح الدراسات البينية (Interdisciplinary).

ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار أن الدراسات البينية قد ارتبطت في الفكر المعاصر بإشكال معرفي كبير من مراحل تطوره المتسارع وهو الإشكال ما بعد التخصّصي لهذا الفكر الذي جسّدت الفلسفة فيه رافدا من روافد المعرفة، من اليونان إلى عهد ليس ببعيد، قبل أن تؤدي الثورة الصناعية إلى تراجع الفكر الموسوعي لحساب التخصصات التي ارتبطت بنشأة العلوم المختلفة، ومن بينها العلوم الإنسانية، كعلم النفس والتربية والاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات. ولقد استطاعت هذه العلوم أن تنتج نظرياتها الخاصة ومنظوماتها المفاهيمية ومصطلحاتها الخاصة. فهل حقا كان التوجّه العلمي سببا في تراجع الفكر الموسوعي، وبروز السعي الأحادي الذي عكس نوعا من العقل التبسيطي القائم على منظومة الكيانات المغلقة مثل الماهية والخطية والنص والذات والموضوع، وهل أن قيامها على المنهجية العلمية التي تتسم بالجزئية والاختزالية في وصف الوحدات الأولية التي تكون الظاهرة، قد أسس لمنظومة لعبت كما يقول (موران، 2004م، 5) الدور التحققي لحارس الحدود، من خلال التمركز حول الظاهرة؟

وفي هذا السياق فقد قام أبو الحمائل نقلا عن (غانم، 2016م، 544 - 545) بتوضيح أهمية وإيجابيات ذلك التوجه بقوله: "على الرغم من أهمية التخصصات الدقيقة إلا أن المعلوماتية والعولمة قد فرضت على العالم المعاصر متغيرات وتوجهات عديدة منها ضرورة الاهتمام بوحدة المعرفة وأهمية تكامل الجهود لتحقيق شمولية الرؤى المستقبلية اللازمة لمواجهة المشكلات والتحديات. وقد أوجب ذلك ضرورة تطوير نظم التعليم على كافة مستوياته ومراحله، وذلك سعيا لتوحيد المعرفة والاقتصاد فيها بإحداث المزج والتكامل بين التخصصات أو الدراسات البينية".

ثم جاء الباحث الألماني إرنست روبرت كيرتيوس، صاحب الكتاب الشهير (الأدب الأوروبي والعصور الوسطى اللاتينية) ليؤكد أن "التخصص دون رؤية شمولية أعمى، وأن الرؤية الشمولية دون تخصص هي رؤية جوفاء"؛ وذلك في معرض تأكيده على أهمية التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب الأوروبي قراءة واعية، وأكثر صحة وعمقا. (البازعي، 2013م، 221). وفي العصر الحديث أصبح التلاقح الفكري المعتمد على تخصصات شتى ليس بينها علاقة مباشرة هو السمة الغالبة في معظم البحوث والدراسات.

إن الطرح السابق، يؤكد على أن التوجه للدراسات البينية بين العلوم ليس ترفا معرفيا نتسابق إليه وبه إلى منصات الحوار، بل أصبح هذا التوجه حاجة علمية ملحة للعلوم، فقد أصبحت العلوم المتعددة في مأزق أمام تلك المتغيرات، خاصة أن النزعة الموسوعية للعلوم طال الحديث عنها وعن أسباب الحاجة إلى التحول إليها، يدفع إليها اتساع المعرفة وتراكمها وتداخلها وتأثيرها وتأثرها، إلى جانب

هجرة المصطلحات والمناهج والنظريات من علم وتخصص إلى آخر، فنشأت تخصصات جديدة هجينة، غيرت شكل المعرفة، يقابل ذلك قصور في نتائج المعرفة المتخصصة، مما جعل العلماء يطمحون إلى هذا الدمج طمعا في علوم جديدة متداخلة تخدم البشرية وتقلل من مشكلاتها، حيث أصبحت المشكلات التي تمر بها المجتمعات هي مشكلات مركبة من تخصصات متنوعة مما يستدعي اجتماع هذه التخصصات معا لحلها، ولا بد أن نميز هنا بين مصطلح اجتماع التخصصات ومصطلح امتزاجها، فالأول ليس له قيمة الثاني إطلاقا، بل الأول هو مرحلة للثاني ومقدمة له، حيث أن الثاني هو الذي يتغلغل في كل تخصص ويغير من رؤيته ومناهجه ونظرياته، ومنه تولد تخصصات جديدة ممزوجة إبداعية. (الحلوة، 2020م).

ولا شكَّ في أنَّ ظاهرة الإبداع في أكثر من علمٍ واحد، كانت صفةً مميزة لكثير من علماء المسلمين، لكنَّ هذه الظاهرة كانت كذلك معروفةً عند العلماء والمفكرين والفلاسفة الأقدمين بصورة عامة في الحضارة اليونانية وغيرها. وربَّما كانت ظاهرةُ التخصص في علم واحد والتفرغ له ظاهرةً حديثة في التاريخ الإنساني، بسبب التوسُّع الكبير الذي طرأ على المعرفة البشرية؛ حتى أصبح من غير المقدور والميسور على العالِم الواحد أن يتخصَّص في أكثر من علم، بل إنَّ الدور قد جاء على العلم الواحد فتجزَّأ إلى علوم فرعية لا يكاد العالِم يتقن واحداً من هذه الأجزاء. (ملكاوي، 2016م، 23).

والدراسات البينية هي مساحات معرفية يلتقي خلالها الدارسون المتمرسون والباحثون الجادون، ويتعرف بعضهم على نشاط البعض الآخر، ثم إنها - من جهة أخرى - تمثل ساحات للحوار بين أصحاب الاهتمامات العلمية المتباينة الذين يدركون جيدا أن السجالات العلمية الخصبة لا يمكن أن تنحصر في نطاق أهل التخصص فيما يشبه الدوائر المغلقة؛ ومن ثم يصبح من الضروري الالتقاء بين التخصصات المتقاربة والمتباعدة أو التي قد يظن أنها متنافرة، وصولا إلى التكامل المعرفي، الذي تعتبر الدراسات البينية أهم مداخله وأوضح وسائله.

والدراسات البينية - أيضا - بمثابة الطريق الثالث، كما سماه (فرج، 2012م، 204) بعد أن سلك الفكر سبيلين سابقين: الموسوعية الشاملة ثم التخصص المنعزل. وأزعم أني (والكلام لفرج) ولا أغالي إن قلت: إنها تجمع بين محاسن كلا السبيلين (الموسوعية والتخصصية) وتتجنب - في الوقت ذاته - مثالب كل منهما منفردا. وتأتي أهمية الدراسات البينية من أهمية التركيز على الروح الجماعية في البحث العلمي وضروريتها، بما يحقق عملية التفاعل والتكامل بين التخصصات العلمية، ويعوِّد على روح الفريق في العمل، ويجعل من مقولة (العلم رحم بين أهله) حقيقة واقعية ملموسة.

وهذا البحث يروم تحديد المكانة وأهم المميزات التي تتمتع بها الدراسات الموسوعية والتخصصية والبينية والتكامل المعرفي كلا على حِدة، وما هي الانتقادات التي وجهت لها، وإمكان وجود وشائج، وخاصة بين الدراسات الموسوعية والتخصصية، اللذان يبدوان في ظاهر الأمر على طرفي نقيض، ومن ثَمَّ تجسير العلاقة بينهما؛ انطلاقًا من البينية التي تقوم على التفاعل أو التكامل أو التقاطع أو التأرجح المعرفي بين المجالات المعرفية المتباينة دون أن يفقد كل مجال خصوصيته.

وقد وقف البحث أثناء جمعه للمادة العلمية على كم كبير من الدراسات والبحوث والمؤلفات التي تناقش موضوع الدراسات الموسوعية والدراسات التخصصية والدراسات البينية والتكامل المعرفي، وقد كانت هذه الدراسات إما بصورة مستقلة لكل دراسة، أو جمعا بين دراستين كالموسوعية والتخصصية أو الموسوعية والبينية أو التخصصية والبينية، وقد حاول الباحث الاستفادة من جميع ما كتب حول هذه الاتجاهات المتعددة للدراسات، من خلال ما وقع تحت يده واستطاع الوصول إليها من هذه الدراسات والبحوث والمؤلفات، سواء من خلال الاستناد إليها كدراسات سابقة، أو لبلورة موضوع بحثه، وسيورد الباحث نماذج من هذه الدراسات والبحوث والمؤلفات، ويمكن للمطلع على هذا البحث أن يراجع قائمة المصادر والمراجع ليرى طبيعة ما كتب حول هذه الدراسات وتنوعها.

ففي بحث (فرج، 2021م) بعنوان: (جدوى الموسوعية والدراسات البينية في التكامل المعرفي)، ناقش الباحث جدوى الموسوعية والدراسات البينية لتحقيق التكامل المعرفي للمثقفين ذوي الاهتمامات العلمية المتباينة؛ وأكد على ضرورة تلبية الاحتياجات الثقافية لأولئك المتخصصين لسد الفجوة بينهم حتى لا يشعروا بأنهم في جزر معزولة.

أما دراسة (بلعلي، 2017م) بعنوان: (الدراسات البينية وإشكالية المصطلح العابر للتخصّصات)، فقد وقفت على طبيعة الدراسات البينية وإشكالية منظومتها المفاهيمية والاصطلاحية، ورصدت في البداية علاقة هذا النوع من الدراسات بالثورة اللسانية وبالبنيوية باعتبارها المحضن الذي انطلقت منه الدراسات العابرة للتخصصات. كما تطرقت إلى علاقة الدراسات البينية باعتبارها دراسات ما بعد تخصصية، على الرغم من اختلاف المقاصد والغايات. وأشارت الدراسة إلى أهم مجالات الدراسات البينية، كتحليل الخطاب والبلاغة العامة والدراسات المعرفية، ونظرية المزج التصوري التي تشتغل على البنية التصّورية للغة واعتبار المزج التصوري الآلية الذهنية التي تسمح بتفسير العمليات التصورية المنجزة أثناء ممارسة اللغة، وسعت الدراسة إلى التأكيد على وجاهة هذا النوع من الدراسات التي أعادتنا إلى الفكر المركب وأبستمولوجيا التعقيد، التي فرضت إشكالا اصطلاحيا، ونوهت الدراسة في الأخير بدور الدراسات العابرة للتخصصات في ردم الهوة بيننا وبين تراثنا.

ومن الدراسات في هذا السياق دراسة (غانم، 2016م) بعنوان: (مستقبل الدراسات البينية في العلوم الإنسانية: (علم الانثروبولوجيا نموذجا)، حيث سعت هذا الدراسة إلى التعرف على مفهوم الدراسات البينية، وتناول الباحث بالدراسة إيجابيات الدراسة البينية، والانتقادات التي وجهت إلى الدراسة البينية، واستعرض الباحث إسهامات العلماء المسلمون في تصنيفات العلوم المختلفة ومعرفة الأسس التي قامت عليها تلك التصنيفات، ومن ثم التعرف على التصنيفات الحديثة للعلوم ومدي تأثيرها على مجالات الدراسة البينية، وأخيرا عرض الباحث لبعض مجالات الدراسة البينية في (علم الانثروبولوجيا).

ومن الدراسات ـ أيضا ـ دراسة (عبده، 2016م) بعنوان: (البحوث البينية وتقدم المجتمعات الإنسانية خلال الألفية الجديدة: تجارب عملية وخيارات مستقبلية)، وقد أشارت هذه الدراسة إلى أن البحوث البينية شكلت مجالاً خصباً للباحثين في العصر الحديث، لما تمثله من أهمية في دراسة ظواهر المجتمع المختلفة، وقضاياه ومشكلاته المعقدة التي تحتاج إلى عبور الحواجز والقيود المعرفية فيما بين العلوم الاجتماعية والطبيعية. وأشارت إلى أنه وبعد عقود من التخصص المتزايد على المستوى الرأسي -أي فيما بين العلوم الاجتماعية- والمستوى الأفقي ـ أي فيما بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ـ تبين أن هناك اتجاهاً متزايداً نحو تمويل مشروعات وبرامج بحثية تحاول أن تعزز البحوث البينية بوصفها وسيلة لتشجيع التقدم العلمي والتكنولوجي، والاستفادة من المخرجات البحثية في التنمية الإنسانية وتحسين جودة الحياة، فالبحوث البينية التي تعتمد على التفاعل المعرفي ليست هدفاً في حد ذاتها بل هي وسيلة لدعم جهود بحثية لمواجهة مشكلات مجتمعية، وتعزيز بيئة تنافسية، يمكن من خلالها الحصول على المعرفة، ويحدث ذلك من خلال تكامل معرفة، أو صياغة مجالات بحثية جديدة تعتمد على تكامل المعرفة من ميادين مختلفة. وفى ضوء ما سبق فقد كان هدف الباحث هو إلى إلقاء الضوء على ملامح البحوث البينية، وإلى أي حد يمكن الاستفادة منها في دراسة المجتمعات الإنسانية، مع استعراض تجارب عملية في مجال البحوث البينية.

وجاء مؤلف (ملكاوي، 2016م) بعنوان: (منهجية التكامل المعرفي. مقدمات في المنهجية الإسلامية)، ليؤكد على خاصية التكامل في المنهجية الإسلامية: التكامل في المصادر؛ والتكامل في الأدوات؛ والتكامل في المدارس؛ والتكامل بين الطبائع والوقائع المشهودة، والمثل والقيم المنشودة؛ والتكامل بين الوصف الكمي بالتقدير والحساب الدقيق لموضوع التفكير أو لمشكلة البحث، والوصف الكيفي الذي يعطي الدلالات والمعاني العميقة؛ وغير ذلك من وجوه التكامل ً المعرفي والتعامل المنهجي، وأخيرا لبيان اعتماد هذا المؤلَّف لمفهوم التكامل المعرفي كإطار مرجعي للمنهجية الإسلامية.

أما بحث (مفتاح، 2014م) بعنوان: (الدراسات البينية بين العلوم الشرعية والإنسانية)، فقد تناول فيه الباحث الدراسات البينية بين العلوم الإسلامية نفسها، ومدى نشأة وضبط وتطور الدلالات والمفاهيم؛ والولوج إلى (المعنى) وظلال المعنى، للوصول إلى (أصول البيان) ضمن نظرية معرفية متكاملة تحمل ثالوث فقه العلم (المصطلح، القاعدة، المنهج). وهذا العمل لا يعدو كونه محاولة لـ (تجديد الفهم) من أجل (تجديد العمل) ضمن (رؤية مقاصدية) لضبط مناهج البحث في المقاصد.

وقد سعت دراسة (البازعي، 2013م) بعنوان: (الدراسات البينية وتحديات الابتكار)، إلى تفكيك الدراسات البينّية واللابينّية، من خلال المقولة الجامعة للباحث الألماني التي سبق الإشارة إليها، وهي: "التخصص دون رؤية شمولية أعمى، والرؤية الشمولية دون تخصص جوفاء"، مؤكدة على أهمية التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب قراءة متدبرة متأولة لا تركن للجاهز، وتتجاوز مقولة الشمولية إلى مقولة التداخل بين العلوم والمزاوجة بين مختلف فروع المعرفة ومناهج الوصول إليها وما تحمله من قوائم مصطلحية وسجلات مفاهيمية.

أهداف البحث:

تتمثل أهداف البحث في الآتي:

ـ التعرف على مميزات الدراسات الموسوعية، وطبيعة الانتقادات الموجهة إليها.

ـ التعرف على مميزات الدراسات التخصصية، وطبيعة الانتقادات الموجهة إليها.

ـ التعرف على مميزات الدراسات البينية، وطبيعة الانتقادات الموجهة إليها.

ـ التعرف على مفهوم التكامل المعرفي في البحث العلمي، وما علاقته بالدراسات الموسوعية والتخصصية والبينية.

ـ التعرف على طبيعة العلاقة بين هذه الدراسات (الموسوعية، التخصصية، البينية)، وما هي نقاط الالتقاء والافتراق فيما بينها.

مشكلة البحث:

الطفرات السريعة التي شهدتها العلوم بشتى أنواعها خلال القرنين الأخيرين، وخاصة في القرن العشرين، وما أحدثته القفزات المتسارعة في البحث العلمي من ثورات علمية وتقنية شملت أغلب جوانب الحياة، انعكس ـ كل ذلك ـ بدوره على نظرة العلماء والباحثين لأساليب البحث العلمي التي كانت ـ وما زالت ـ حاضرة كالدراسات الموسوعية والتخصصية، وإذا كان الاتجاه نحو التخصص الدقيق هو السمةَ الغالبةَ على البحث العلمي حتى منتصف القرن العشرين، فإن آليات العولمة وتفجر الثورة المعلوماتية قد فرضتْ على العالم المعاصر توجهاتٍ وأفكارًا مغايرةً أطلق عليها اصطلاح (الدراسات البينية)، لتؤكد هذه التوجهات على وحدة المعرفة وأهمية التكامل بني

التخصصات. والباحث هنا يحاول تسليط الضوء على هذه التوجهات المتبعة قديما وحديثا، ويحاول تتبع مسار هذه الدراسات موضحا المميزات التي تتمتع بها والانتقادات الموجهة إليها. وبناء على ذلك فقد تمثلت مشكلة البحث في السؤال الرئيس التالي:

ما مميزات الدراسات الموسوعية والتخصصية والبينية في البحث العلمي، وما الانتقادات الموجهة إليها؟

ويتفرع عن هذه السؤال الأسئلة الفرعية التالية:

1- ما مميزات الدراسات الموسوعية في البحث العلمي، وما هي الانتقادات الموجهة إليها؟

2- ما مميزات الدراسات التخصصية في البحث العلمي، وما هي الانتقادات الموجهة إليها؟

3- ما مميزات الدراسات البينية في البحث العلمي، وما هي الانتقادات الموجهة إليها؟

4- ماذا نعني بالتكامل المعرفي في البحث العلمي، وما علاقته بالدراسات الموسوعية والتخصصية والبينية؟

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث من خلال النقاط التالية:

- يقدم هذا البحث رؤية علمية لأهمية البحوث البينية في توفير المعلومات لصانعي القرار الذين يحتاجون بصورة متزايدة إلى المعلومات والبيانات حول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية الثقافية، لأنه في حال عدم تقديم الدراسة العلمية لمثل هذه المعلومات في هذا المجال أو ذاك، فسوف يلجأ صانعو القرار إلى اتباع أسلوب التخمين، وصياغة سياسات قد تبتعد عن الواقع، ومن ثم يمكن القول إن وضع السياسات وصياغتها يحتاج إلى تكامل المعلومات العلمية حول الجوانب المختلفة للمشكلة البحثية موضوع الدراسة.

- يقدم هذا البحث للباحثين تصورا واضح الملامح، يمكنهم من توسيع النظر، وتقبل وجهات النظر الأخرى القادمة من تخصصات متنوعة، والعمل على فهم وجهات النظر الأخرى، والقبول بمداخل متعددة لفهم هذه المشكلة أو تلك، بمعنى أوضح، فهذا البحث يحث الباحثين على تبني منهج تعددي عند التصدي لدراسة أي ظاهرة اجتماعية أو إنسانية.

- يعطي هذا البحث صورة مختصرة ومركزة للدراسات الموسوعية والتخصصية والبينية، وكذا مفهوم التكامل المعرفي، وقد جمع فيه الباحث ما تفرق في غيره من البحوث، من خلال دراسة نقدية مقارنة، تبرز أهم المميزات، وتوضح أبرز الانتقادات الموجهة إلى هذه الدراسات.

- يحاول هذا البحث أن يرشد الباحثين إلى توسيع آفاق بحوثهم، بحيث لا تتوه في مسارب الموسوعية، ولا تنحصر في التخصص الدقيق، وأن تستفيد من كل العلوم وتحاول المزاوجة بينها فيما يسمى بالدراسات البينية للوصول إلى التكامل المعرفي المنشود.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي، من خلال دراسة نقدية مقارنة، تبين المكانة التي يحتلها كل اتجاه، وطبيعة الانتقادات التي وُجِّهت إليه، خاصة وهناك اتجاه وميل واضح - في الوقت الحاضر - للبحوث العلمية ذات الاتجاه البيني، على حساب الاتجاهين الآخَرَين (الموسوعية والتخصصية)، وهو توجه إيجابي للوصول إلى مرحلة التكامل المعرفي.

التعريف بالمصطلحات:

البحث العلمي:

يؤكد (زكريا، 1978م، 31) على ضرورة خضوع البحث العلمي لقواعد معينة، فيقول عن البحث العلمي بأنه: "بحث يخضع لقواعد معينة، وليس بحثا علميا متخبطا، ومع اعترافنا بأن هذه القواعد قابلة للتغير باستمرار، فإن مبدأ الخضوع لقواعد منهجية هي صفة أساسية غير المعرفة العلمية".

والبحث العلمي كما يعرفه (عليّ، 2010م، 355): "هو جهد منظم، يقوم به باحث ملتزم بالموضوعية، في أي ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية، مستخدما منهج البحث الذي يناسب موضوعه، مستهدفا تنمية المعرفة الإنسانية، واكتشاف الحقائق التي أودعها الخالق في مخلوقاته، وإدراك تلك التي أخبر بها عباده".

لكن علينا أن نقول إن البحث العلمي لن يقدم حلولا خارقة، إنه يقدم معرفة منظمة أكثر، ولكن لا يمكنه أن يقدم حلولا فورية للمشكلات الأكثر عمقا. البحث الجيد يقدم معلومات، وتحليلات أفضل، ولكنها دائما غير كاملة. إنه يقدم عنصرا صغيرا ولكن لا يمكن إهماله. إنه يساعد على تحديد مدى الاختيارات، لكنه لا يصنع هذه الاختيارات (طائفة من المتخصصين، 1975م، 65). والبحث العلمي ينمو ويقوى في ظل الحرية، ويضعف ويضمر في مناخ الكبت، ومفهومه يفترض أن المعرفة تأتي من مصادر عدة وأنها مفتوحة النهاية بل ومجهولة النهاية أيضا.

ويمكن تعريف التفكير العلمي إجرائيا بأنه: " كل نشاط عقلي هادف مرن، يتصرف بشكل منظم، في محاولة لحل المشكلات، ودراسة وتفسير الظواهر المختلفة، والتنبؤ بها، والحكم عليها، باستخدام منهج معين، يتناولها بالملاحظة الدقيقة والتحليل، وقد يخضعها للتجريب في محاولة للتوصل إلى قوانين ونظريات" (بكار، 2000م، 41).

الدراسات الموسوعية:

الموسوعية مأخوذة من لفظة موسوعة، والتي تعني لغويا في أصلها اللاتيني المقابل للأصل اليوناني (التعليم الشامل). والموسوعة: كتاب يجمع معلومات في كل ميادين المعرفة والفنون، أو في أي ميدان ما، وتعرض المواد فيه مرتبة ترتيبا هجائيا أو بحسب الموضوعات. والموسوعي عالم جليل ذو معارف واسعة (عبد الحميد، 2008م، 2440).

ونعني بالموسوعية: القراءة الشاملة والجادة في مختلف الفنون والعلوم والآداب بتخصصاتها المختلفة (فرج، 2021م، 189). والموسوعية تعني ـ أيضا ـ التوغل المعرفي العام والجاد في مختلف ألوان الفنون والعلوم والآداب من خلال تخصصاتها المختلفة.

الدراسات التخصصية:

خصص: خَصَّهُ بِالشَّيْءِ يخُصّه خَصّاً وخُصوصاً وخَصُوصِيّةً وخُصُوصِيّةً، وَالْفَتْحُ أَفصح، وخِصِّيصَى وخصّصَه واخْتصّه: أَفْرَدَه بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: اخْتصّ فلانٌ بالأَمر وتخصّصَ لَهُ إِذا انْفَرَدَ، وخَصّ غيرَه واخْتصّه بِبِرِّهِ (ابن منظور، 1993م، 7/ 24).

وتخصص بأسلوبه: امتاز به عن غيره، انفرد به. تخصص في الطب: قصر عليه بحثه وجهده فعرف به، كرس نفسه للقيام به ودراسته. (عبد الحميد، 2008م، 650).

والتخصص مشتق في اللغة من الخاصة، والخاصة هم الذين تم اختصاصهم دون العامة في المعرفة أو المشورة أو اتخاذ القرار، والعمل المتخصص هو العمل الذي يستلزم دراسة ومعرفة المجال المحدد بدرجة تتقدم على المعلومات العامة بهذا المجال لتكون معلومات تفصيلية تتيح لصاحبها التعامل في كافة الأحوال والمواقف.

إن مفهوم التخصص يعني أن يختص فرد بالقيام بعملٍ مُعين دون غيره، وأن يوفر له الوقت والجهد، ويقال في اللغة العربيّة تخصّص بالشيء أي أنه اقتصر عمله عليه، وخصه دون غيره بالبحث والاهتمام والفعل، أمّا عملياً فهو تقسيم المهام، والعلوم، والأعمال، وإنتاج السلع، وتقديم الخدمات إلى عدة أقسام يتميز كل منها بمتطلبات مختلفة عن الأقسام الأُخرى.

الدراسات البينية:

بينية: اسم مؤنث منسوب إلى بين (العلاقات البينية)، وهو مصدر صناعي من بيْن. يقال: التجارة البينية: أي التجارة التي تقوم على تبادل الصادرات والواردات بين الدول (عبد الحميد، 2008م، 276).

والدراسات البينية (Interdisciplinary) هي بحوثٌ علميةٌ مُعمَّقَةٌ، لا يقنعُ أصحابُها بالاكتفاء بالتخصص الدقيق؛ منفردًا، بل يتوخَّون الكشفَ عن مناطق التخوم: (التجاور، التلاقي، التقاطع، التشابك، التقارب) بين العلوم، وهي دراساتٌ تجمعُ بين النظرة التخصصية الدقيقة، والنظرة الموسوعية الشاملةِ، وتؤمنُ بالتكامل المعرفي بين كافة العلوم، وترى أن هذا التكامل بات ضرورةً مِنْ ضرورات المنهج العلمي النافع، في هذا العصر (صالحين، 2019م).

شكل رقم (1) يوضح تعريف الدراسات البينية (مفتاح، 2014م، 7)

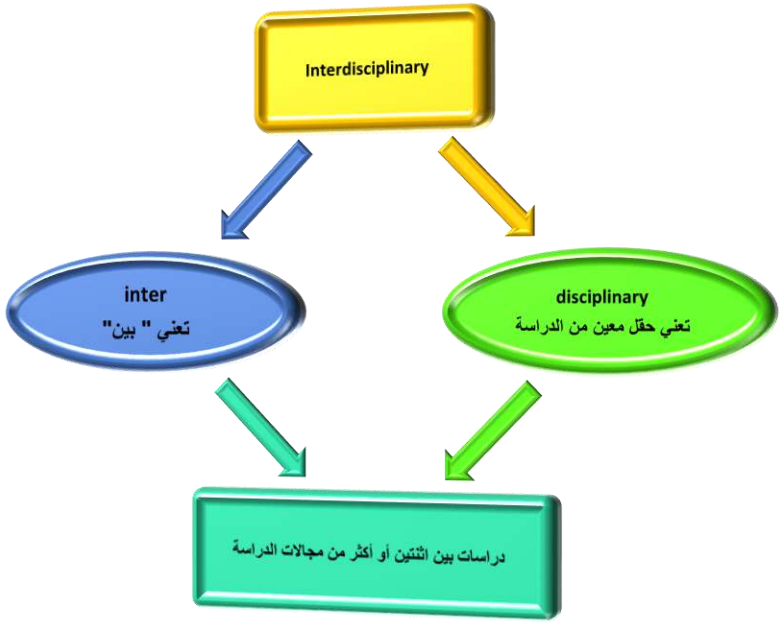

التكامل المعرفي:

التكامل: جاء في المعجم الوسيط تكامل الأشياء يعني: كَمَّل بعضها بعضاً (أنيس وآخرون، 1972م، 2/ 834).

وغالبا ما يشار إلى مفهوم التكامل المعرفي في أدبيات المعرفة بمصطلحات ومفاهيم شتى منها: التجّسير، التعشيق، التهجين المعرفي وغيرها (الحبيب، 200م، 194).

ويشير مفهوم التكامل المعرفي إلى الجهود المبذولة من أجل توحيد جسد أو هيكل المعرفة المتناثر والمتشظي بين العلوم والحقول، وكذلك بين المعرفة النظرية والمعرفة التطبيقية، وقد يحدث ذلك التكامل بمستويات متفاوتة.

والتكامل المعرفي بين العلوم يعني أن علما معينا يحتاج إلى أن يتكامل مع علم آخر أو أكثر من أجل تطويره وتقدمه؛ أو حاجة الإنسان في فهمه لعلم معين إلى علوم أخرى تعين في تحقيق هذا الفهم، وتبدو مسألة التكامل المعرفي في هذه الحالة أكثر وضوحا، ويكون المفهوم مفتوحا؛ إذ تضاف إليه أبعاد جديدة كلما لزم الأمر (فرج، 2021م، 194).

البحث العلمي بين الموسوعية والتخصصية والدراسات البينية والتكامل المعرفي (دراسة نقدية مقارنة)

أولا: الدراسات الموسوعية:

مكانة الدراسات الموسوعية وأهميتها:

الألفاظ والعبارات - كما يشير (القيرواني 1963م، 1/ 134) - أجسام روحها المعاني والأفكار، ولن تكون ثمة معان وأفكار بغير ثقافة عريضة متنوعة لا تتأتى إلا بالقراءة في كل مجالات المعرفة وألوانها المختلفة. وإذا كان التأليف يستلزم الاستعمال السليم والرشيق لأدوات التعبير المختلفة لدى من يمتلكون ناصية اللغة، فإن هذا لا يجعلهم يستغنون عن (المادة الخام) والتي نعني بها المعرفة المتراكمة سابقا، والأفكار والحقائق والتكهنات المطروحة في الكتب والدوريات والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة المسموعة والمرئية، إضافة إلى ممارسات المؤلف العملية والنظرية والحياتية اليومية؛ وبهذا فإن الاطلاع المتواصل، والواسع والعميق، هو شرط أساسي من شروط المثقف المنتج للثقافة بشكل عام. (غصيب، 1992م، 118).

وتعرف العرب الكاتب بأنه: " نفسٌ واحدة تجزأت في أبدان كثيرة". ويعلق على ذلك إبراهيم الإيباري قائلا: وهم يعنون أنه قد اجتمع له ما تفرق في آحاد كثيرة، من علم ومعرفة وبصر وخبرة، وهذا هو المعنى الذي يحمله لفظ المثقف. (فرج، 2021م، 208). والأديب لو تثقف بعض الثقافة العلمية لامتلأ الأدب بالتشبيهات والمعاني الحديثة، فكم في الكهرباء والمغناطيسية من ذخيرة أدبية، ولو تثقف العالِم ببعض الثقافة الأدبية العامة لحسُن تعبيره، وازدان منطقه، ووضح مقصِده. (أمين، 2012م، 9/ 33). وقد جرت السُنة أن المبدعين والعباقرة يأتون عادة من خارج حقل المهنة. ففي كتاب (العبقرية والإبداع والقيادة) من كتب سلسلة عالم المعرفة يشير المؤلف

إلى أن معظم المبدعين جاءوا من خارج التخصص لأناس عشقوا المادة، واهتموا بهذا الفرع من المعرفة وفي سن مبكرة. (سايمنتن، 1993م، 152).

وشروط الإنتاج العلمي المتميز ليست شروطًا سهلة، في ضوء أكداس المعرفة وتراكماتها. فالإنتاج العلمي والمعرفي هو إبداع وريادة وتفوق وتميز. والأمة المتفوقة تتيح لأبنائها من طلبة العلم أن يتحددوا في مجال دراسي ضيق يتعمقون في تخصصه فيبدعون. أما الأمم المتخلفة فإن كثرة الثغرات في الجسم العلمي والمعرفي وتعددها وتنوعها، تفرض على الباحث أن يتسع مجال اهتمامه العلمي ويتشعب للإحاطة بكثير من المتطلبات السابقة على الإنتاج المتميز والإبداع، وبخاصة أن طبيعة البنية التحتية والبيئة المؤسسية للبحث العلمي يضاعفان حجم الجهد والوقت الذي يبذله الباحث أضعافًا كثيرة. (ملكاوي، 2002م،85). وكلام ملكاوي ليس على إطلاقه، فالفرق بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة هو في كيفية توظيف الدراسات الموسوعية والدراسات التخصصية، وتوجيه الباحثين للاستفادة من عمق التخصص وشمولية التوسع، وليس الاقتصار على أحدهما دون الأخرى.

والذي لا يختلف عليه اثنان هو أن العلوم الإنسانية والكونية والتجريبية قد مرتْ بمراحل عديدة؛ بدءًا من المرحلة الموسوعية، إلى المرحلة التخصصية العامة، ثم إلى مرحلة التخصص الدقيق، ثم مرحلة التشظي الأدق، والآن نعود إلى مرحلة الموسوعية المعرفية، ولكن من باب: الدراسات البينية.

الجمع بين الموسوعية والتخصصية:

إن الباحث عن الفكر وما فيه ليس مثل ذلك الباحث في موضوعات جزئية وشرائح مباشرة. فالأول باحث طائر، والثاني باحث راجل، كما شبههما (علي، 1987م، 313 - 314)، الأول إذ يركب طائرة، فلابد أن تتسع الرقعة المكانية أمامه فيستطيع أن يبصر الأطر العامة، والمسارات الرئيسة، أما الثاني فهو يقف عند هذا المحل وذاك المنزل وهذا الشارع يلحظ دقائق موضوعاته وجزئياته.

ومن يأخذ من كل علم بطرف، ومن يطلع على المجالات الأخرى خارج التخصص قد يغلب ويفوق المتخصص الذي انكفأ على تخصصه لا يعلم سواه، حيث يؤدي التوسع في الاطلاع على المجالات المختلفة إلى اختلاف المنظور للتخصص، بما يظهر أبعادا جديدة له تنير جوانب غامضة وتحل إشكالات قديمة. وقديما كان العلماء موسوعيين؛ يعرفون الأدب والفقه والتاريخ والكيمياء والرياضيات والطب وغير ذلك، فابن سينا مثلا كان طبيبا فيلسوفا، وجابر بن حيان كان كيميائيا صوفيا، وكثير من الفقهاء كانوا يعملون بالطب والفلك والرياضيات، لكن الزمان قد تغير والتخصصات قد تضخمت والمعارف قد انفجرت، فهل يعني هذا انحسار الموسوعية وانتهاء عصرها؟

لا أظن ذلك، ولكن أرى للموسوعية معنى جديدا يناسب العصر؛ وهو أن يجمع الأستاذ بين تخصصين أو أكثر؛ ويتعمق فيها جميعا، مع الاطلاع على غيرها من التخصصات خارج قسمه بل خارج كليته، ويكتب ويبحث في كل هذه التخصصات بقدر ما يستطيع، وفي الغالب ستكون دراساته بينية مبدعة تنظر بمنظور جديد وترى ما لا يراه المتخصصون الانكفائيون، الذين يظنون أن الدراسات البينية تعوق التخصص وتجعل حدوده مميَّعة.

وقد كان العلماء موسوعيين في بحوثهم ولم يكونوا متخصصين، كما أشرنا قبل قليل، فكان العالِم ملمًّا بحقول مختلفة، وله في كل حقل يد، ومن كل فن طرف، وكانوا يسقطون النتائج على الحالات المتشابهة أو المشتركة في بعض الخصائص، وكان يغلب على هذه النتائج طابع العمومية، نظرا لغياب وسائل الرصد والقياس الدقيقة. (المهدي، 2019م، 40). أما على مستوى المضمون فإن الباحث يجب أن يكون عابرا للأنواع، فيطوف على علوم شتى، سائلا إياها أن تمنحه منها ما يقتطفه أو يقتبسه أو يستفيد منه ويحاوره ويحاججه ويستعين به في مسار آخر وفق قاعدة (العلم بمدخله وليس بموضوعه). (حسن، 2017م، 18). وقد كان من الأسباب الرئيسية التي كانت تمنع العالِم من الانصراف إلى التخصص في فن واحد، صفة إنسانية تعم البشر جميعا، وهي كراهية الإنسان الاعتراف بجهله. (روزنتال، 1961م، 166 - 167).

ولنا في العلماء الأفذاذ مثالا وعبرة؛ فنعوم تشومسكي مثلا بدأ حياته العلمية عالما بالرياضيات، ثم من قراءاته في اللغات شغف بها، فتحول إلى دراسات علم اللغة وأفادته الرياضيات في وضع واحدة من أكبر نظريات النحو التحويلي التوليدي مازال الناس ينهلون منها حتى اليوم، ولم يكتف بذلك، بل تحول إلى دراسات العلوم السياسية وحقوق الأقليات في آخر عقد من الزمان، فصار حجة في التحليلات السياسية والاستراتيجية، وما ذلك سوى أنه أفاد من رحلته عبر التخصصية فرفدت كل من العلوم التي مر بها. والدكتور عبد الوهاب المسيري جمع إلى تخصصه في الأدب الإنجليزي ريادته للدراسات حول اليهودية والصهيونية. (عبد اللاه، 2020م). والواقع أن المسيري لم يتسن له أن يجمع بين هذا الشتيت من العلوم إلا بثقافة موسوعية شملت ضمن ما شملت تلك الدراسات البينية التي يغفل عن تحصيل محتواها كثيرون.

وثمة نماذج رائدة في تراثنا القديم والحديث، ما ذاع صيتها، وما لمع نجمها إلا لكونها قد جمعت بين الموسوعية والتخصص في مجال معين من المجالات؛ ومن ثم فقد اتسمت بالشمولية ولم تعدم العمق، ولهذا جمع بعضهم بين لقبين أو أكثر، كأبي حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، وابن سيناء الفيلسوف والعالم والطبيب، كما جمع بعضهم بين التاريخ والفلسفة والأدب وعلم الاجتماع كابن خلدون، وقد يجمع بعضهم بين الطب والفلسفة والأدب، أو بين الفلك والرياضيات وعلوم اللغة أو بين العلوم اللغوية والأدبية وعلوم

الأحياء. كعبقري العربية الجاحظ مثلا، ثم إنهم قد تركوا لنا رسائل ومؤلفات في هذه المجالات مع شهرتهم في مجال معين، والنماذج في هذا الصدد كثيرة كالرازي والبيروني وابن النفيس وابن رشد وابن الأثير، وغيرهم. (فرج، 2021م 204).

فأبو حيان التوحيدي لم يكن من فئة المربين الخلص في الحضارة الإسلامية، حيث غلبت عليه الموسوعية، مع غلبة النزعة الفلسفية إلى حد ما، ومن ثم فإن جملة آرائه التربوية، بعضها جاء حديثا مباشرا، لكن أغلبه يمكن استنباطه من مواقفه الفكرية إزاء عدد من القضايا والمشكلات. (علي، 2011م، 45). وابـن خلدون إنما بلغ ما بلغ من سعة الفهم، حتى أبدع علما لـم يُسبَق إليـه، بسـبب سـعة نظـره وانتشـاره فـي العلـوم المختلفـة والمعـارف المتنوعـة المعروفـة فـي عصـره، مـن العلـوم المتعلقة بالإنسان فــي خِلقته، ونفسه وأوصافه وطبائعه، وبالطبيعة والجغرافيا، والعمران البشري والتمدن الإنساني وغيرهـا مـن العلـوم التـي تبـدو لمـن يطالع مقدمته. (عكيوي، 2009م، 20).

ويمكن القول إن الحافظ جلال الدين السيوطي ينطبق عليه وصف العالم الموسوعي، إذ نجده في مختلف الفنون والعلوم، فألف في التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والنحو، والأدب، وعلوم القرآن، والتاريخ، والطبقات، والعِشق، والطب، وغيرها حتى ادعى مرتبة الاجتهاد المطلق لما رآه من سعة علومه وحيازته لآليات الاجتهاد، كما ذكر ذلك بنفسه في كتابه (الرد على من أخلد إلى الأرض وأنكر أن الاجتهاد في كل عصر فرض). (الأنصاري، 1997م، 57). ومع ذلك فإنه في بعض مؤلفاته قد تعرض للنقد من جهة أنها لم ترقَ إلى مستوى التحقيق العلمي الذي ينشده الباحثون، حيث رأوا أن موسوعيته كانت سببا في إضعاف جذوة الفائدة العلمية من مؤلفاته، وهذا كلام ليس على إطلاقه ولا يتسع المجال الآن لنقده ورده.

والدارس لشخصية الإمام محمد بن علي الشوكاني التجديدية يجد أنها كانت نتاج حياة علمية مغايرة للأنماط الفكرية السائدة في عصره، المتسمة بالتمزق المعرفي، وعزلة جُلّ العلماء عن الحياة والواقع. فمعرفته الموسوعية، وممارسته للسياسة والقضاء، كونت لديه معرفة متكاملة جعلت علمه يتفاعل مع عمله، فيثمر تعاملاً أصيلاً مع واقع الحياة، وتطوراته.

كما إنَّ عقلية الشوكاني الفقهية التجديدية انبثقت أساساً عن تلاقح مختلف العلوم الشرعية، وعدوله عن الإفراط في التخصص المتقوقع في فرع من فروعها، ذلك أن التخصصات الفرعية في أي نوع من أنواع العلوم - مهما كان الاجتهاد فيها - لا تنتج على المستوى العلمي والمعرفي إبداعات كثيرة. لكن التجاوز الجزئي للتخصص الفرعي، والتمكن من سائر التخصصات الفرعية الأخرى التي تندرج ضمن نوع واحد من أنواع العلوم، والتلاقح المعرفي بينها، هو الذي يفتح آفاق الاجتهاد والتجديد. والخلاصة: أن تجاوز الشوكاني حدود تخصصه الأصلي - العلوم الشرعية- واحتكاكه بتخصصات أخرى كان من أهم عوامل تكوين عقليته التجديدية وتفتيق مواهبه الإبداعية. (بوكروشة، 2002م، 94 - 96).

الموسوعية في الرؤية الإسلامية:

إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه في العنوان السابق، فقد استطاع العلماء المسلمون الجمع بين فروع العلم والأدب وفاقوا في ذلك غيرهم، فنجد بين علمائهم من وقف على روائع الأدب وغاص في دقائق العلم وجمع بينهما. ومن يطلع على كتاب الخوارزمي في الجبر يجد أن المؤلف جمع بين الجبر والأدب، وجعل أحدهما متمما للآخر، فالمادة الرياضية مفرغة في أسلوب أخَّاذ لا ركاكة فيه ولا تعقيد، ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق اللغة. ونظرة في كتب البيروني تبين كيف يتعانق الأدب والرياضيات بما فيهما الفلك والطبيعيات، وليس أدل على ذلك من كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم للبيروني. فالأسلوب في هذا الكتاب سلس خال من الالتواء يخرج منه القارئ بثروتين: أدبية، وعلمية. ويشعر بلذتين: لذة الأسلوب الأدبي، ولذة المادة العلمية.

ومنهم من جمع في كتبه بين الأدب والنواحي الأخرى من المعرفة؛ كالفلسفة، والعلوم، والتاريخ، وغيرها. فالجاحظ مثلا: كان له فضل على الأدب والفلسفة جميعا، ففي الأدب كان فضله أن أغزر معانيه، وجعل له موضوعا بعد أن كاد يكون شكلا بحتا، فتقرأ الرسالة من رسائله فتجدها ناصعة الأسلوب غزيرة المعنى، لها موضوع ولها شكل، هذه رسالة في القِيان، وهذه رسالة في المعلمين، وهذه رسالة في الغِناء، حتى رسالته في الهجاء استطاع أن يجعل لها موضوعا علميا، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أن العقلية العلمية والأدبية والفلسفية كانت تشغل الناس في عصر الجاحظ. وفضله على الفلسفة أنه صاغها صياغة أدبية قريبة من الأذهان، فهو يمزج كلام أرسطو بأشعار الجاهليين، وقول الفلاسفة بأقوال الأدباء، ويخرج من ذلك كله إلى نتيجة تلذ القارئ، وتغذي العقل. وكذلك أبو حيان التوحيدي، الذي امتاز في الجمع بين الأدب والحكمة وأصناف العلوم والمعارف، وقد وفِّق في ذلك، مع المحافظة على الحقيقة في أصدق مظاهرها (طوقان، 1990م، 78).

ونلاحظ هنا أن العالم المسلم سواء ظهر نبوغه في مجال الطب، أو الرياضيات، أو اللغة أو التاريخ، أو العمران، لم تكن تنفصل لديه المعرفة الفقهية الشرعية عن المعرفة العلمية، أو بمعنى آخر، كان جامعا للمعرفة بعلوم الدين وعلوم الدنيا، وأمامنا الكثير من علماء الحضارة الإسلامية كان الواحد منهم متفقها في الدين فهو عالم وفقيه، وأيضا نابغا في الطب أو الرياضيات أو غيرها(زيدان، 1969م،

38)، وكان للمعرفة العلمية الشرعية مركز الصدارة والتوجيه، لدرجة أن وصف العالِم أو العلماء "ارتبط أصلا بالعالم الفقيه الدارس للشرع وعلومه" (الغزالي، 1957م، 33/1).

وأساتذة التعليم الأعلى عند المسلمين لم يكتفوا بالنظرة التخصصية الضيقة في إعدادهم العلمي، والتي تكتفي بالتخصص في الموضوع الواحد، أو الفرع الواحد دون الاهتمام بالقراءة الواسعة في غيره من العلوم والمعارف. تلك المعرفة التخصصية الضيقة التي أنتجت لنا العالم المتخصص ذو البعد الواحد، والتي سخر منها أحد العلماء بقوله: أنها معرفة الأكثر والأكثر عن الأقل والأقل. وحتى قال آخر: ما زال يتخصص ويتخصص حتى تخصص في اللاشيء. (النقيب، 2020م، 141).

وقد كان التعليم في العصر الإسلامي تعليما تكامليا، وكان العلماء يمثلون موسوعات في العلوم الشرعية والعربية والحياتية كالطب والرياضيات والفيزياء والفلك والفلسفة إلخ. وكان ابن سيناء والفارابي وابن رشد وابن خلدون وغيرهم أمثلة لهذا التوجه. وأدرك المحدثون أن من يتصدى لتحقيق الروايات ويتولى فحص الأخبار، لا بد له من معرفة حقائق الحياة وخصائص الإنسان وطبائع البشر وسنن الحياة وقواعد الاجتماع البشري.

وعندما عرفوا الأديب أو الكاتب الحق قديما بأنه: "ذلك الذي يأخذ من كل علم بطرف"، فإن ذلك لا يعني أننا نتفق تماما مع هذه المقولة، ولكن هذا لا يعني في الوقت ذاته أن نغفل الإشارة المتضمنة فيها من ضرورة اطِّلاع الأديب والكاتب والباحث بقدر ما يستطيع، على كل مناحي الفنون والعلوم والآداب.

وفي الإطار الغربي نجد الكثير من الجامعات الغربية تشجع الباحثين على الحصول على تخصصات مزدوجة، يدرس فيها الطالب في قسمين بل كليتين مختلفتين، وبعض برامج الدراسات العليا لا تعترض - بل تشجع - الطالب إذا أراد أن يضم المزيد من التخصصات بشرط قدرته على القيام بأعبائها. وحتى على المستوى ما قبل الجامعي، فإن التوجه الجديد هو نحو تكامل العلوم فيما صار يعرف بـ (STEM)، وكلمة STEM هي اختصار لأول كل حرف من الكلمات التالية: (Science- Technology- Engineering- Mathematics). أي (العلوم- التكنولوجيا- الهندسة- الرياضيات). حيث تتكامل العلوم والرياضيات والتكنولوجيا والهندسة، ثم توسعت لتضم (STEAM) بإضافة مكون الفنون والأدب (Art) فهي المكونات الكفيلة بكسر القواعد الجامدة والخروج عن المألوف والتجرؤ على اقتحام آفاق لم يكن أهل العلوم الطبيعية ليفكروا بإمكانية العمل بها. ثم توسعت مرة أخري لتصير (STREAM) بإضافة القراءات المفتوحة في كل المجالات بلا حدود، وهذه هي الموسوعية الجديدة. (عبد اللاه، 2020م).

الانتقادات الموجهة للدراسات الموسوعية:

إن الكتابة الموسوعية في جميع فنون المعارف تأتي في الغالب على حساب التعمق في إحكام موضوع بعينه، وهذا نلمسه أحيانا عند بعض من يتصفون بصفة الموسوعية في البحث أو التأليف، حيث يأتي موضوع التأليف وقد تناوله الباحث أو المؤلف بسطحية، تقضي على الفائدة والغاية من البحث أو الكتاب المؤلف. لكن ما يشاع من أن العلماء المسلمين الأوائل كانوا موسوعيين سطحيين في بحوثهم، فهذا ليس صحيحا. فإننا نجد أمارات التخصص بادية في نتاج هؤلاء العلماء منذ تكوّن العلوم الإسلامية ونشأتها في القرنين الثاني والثالث الهجري، حتى ظهرت طبقات المحدثين، والفقها، والمفسرين، والقراء، والنحويين والأدباء، والأطباء، والصوفية... إلخ، والتي تعكس صفة التخصص الدقيق الذي عرفت به شخصياتهم، فالكل يعرف الإمام البخاري بالحديث ورجاله، ويعرف الإمام الشافعي بالفقه وأدلته وأصوله، ويعرف محمد بن إسحاق بالسير والمغازي، ويعرف سيبويه بالنحو وأصوله...إلخ. (بن الصديق، 2013م، 47).

ولا شك أن البحوث العلمية التي يتسم أصحابها بالموسوعية تترك أثرا غير محمود على تطور بنية العلوم، وصقل مهارات الباحثين للسمة الغالبة فيها وهي اعتماد أصحابها على الإكثار من نقل الأقوال والنصوص للباحثين السابقين دون تحقيق ونقد، وهي طريقة سلبية لم تكن مألوفة. وقد أرجع العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته سبب شيوع البحوث الموسوعية غير المرضيَّة لديه إلى وفرة عدد الكتب وضخامتها في فن واحد وذلك بعد شيوع التأليف في القرون الماضية، والباحث المختص يحتاج إلى عمر طويل مديد خال من الشواغل، لقراءتها والإحاطة بما كتب في مجال تخصصه، فضلا عن نقده، وتطويره، وعن القراءة والاطلاع في اختصاصات أخرى. فوقع الإقبال على البحوث الموسوعية المبسطة، والمختصرة لمراحل تدوين قواعد ومسائل العلوم في هيئة تسطيح، لا يخفى ضررها على تقدم العلوم وتعمقها. (بن الصديق، 2013م، 48).

إلا أن محمد بن يحيى الصولي أرجع سبب ظهور العلماء الموسوعيين إلى طموح أمثال هؤلاء ليذكروا عند ذكر كل فن، ويشار إليهم بالبنان. مع أن ذلك منهم بعيد، يقول الصولي نقلا عن (بن الصديق، 2013م، 48): "رأيت الرجل في زماننا هذا يطلب فنا من الفنون فيقسم له حظ فيه، وينال درجة منه. فلا يرى اسم العالِم يتم له، ولا أن الرئاسة تنجذب إليه، حتى يدعى من العلوم مالم يخطر له ببال، ولا كدَّ فيه ذهنا، ولا حمل إلى أهله قدما، ولا عرف له طالبا، ويظن أنه متى لم يعلمه لم يعد عالِما ولم يحسب رئيسا".

وإذا كنا نجد اليوم من آن لآخر شخصيات تتصور أنها قادرة على الإحاطة بمختلف جوانب المعرفة البشرية، وتستعرض معلوماتها أمام الناس في مختلف فروعها، فلنعلم أن الجانب الأكبر من هذه المعلومات ناقصة أو زائفة، كما يصفها (زكريا، 1978م، 237)، وأن العملية كلها استعراضية جوفاء لا تنطلي إلا على البسطاء وغير المتخصصين.

وكان أكبر مطمع لدي (المسيري، 2005م، 172) في كتابة عمله أن يصل إلى أعلى مستويات التعميم والتجريد والشمول، وفي الوقت نفسه أن يصل إلى أقصى درجات التخصص والدقة. "وهذه صيغة مستحيلة لأنه إن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، فما رأيك برؤية بانورامية متسعة في غاية الاتساع وتفاصيل دقيقة في غاية الدقة". ومن المؤكد أننا كلّما عرفنا أشياء أكثر، كانت معرفتنا عن كل شيء أقلّ. وأنه ليس أكثر معوقاً للتقدم من أولئك الثرثارين الذين يكثرون الكلام في العموميات عن أي موضوع، لكنهم لا يستطيعون الدخول في عمق أي منها، وفق وصف (توماس تريتون) لهم. (ملكاوي، 2016م، 51).

ثانيا: الدراسات التخصصية:

أهمية التخصص:

من المعروف أنَّ أكثر الاكتشافات العلمية والصناعية في العهود الأخيرة من تاريخ العلم والتكنولوجيا كانت تأتي من جهود علماء متخصصين يعملون في مجالات تخصصاتهم الضيقة. صحيح أنَّ كلَّ عالِم منهم ربَّما كان لديه العقل المستعد للاكتشاف، لكنَّ أياً منهم لم يكن بحاجة في الغالب إلى أكثر من إتقان تخصصه والاطّلاع على جهود البحث فيه. ومهما كان سعي علماء آخرين يعملون على حدود هذه الحقول المتخصصة وعَبْرَها، محاولين تأكيد عناصر الوحدة بين العلوم، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أنَّ علماء التخصصات الدقيقة سوف يستمرون في تحقيق إنجازات علمية مهمة. وستبقى هذه الحقيقة تدفع الغالبية العظمي من العلماء- والشباب منهم بخاصة- إلى إثبات وجودهم في العمل المتخصص الدقيق، وربَّما يشعرون بأنَّ العمل في مجالات التكامل والتداخل والتوحيد يكون على حساب فرص التنافس والتفوق العلمي، الأمر الذي يهدد مستقبلهم. (ملكاوي، 2016م، 51).

والعلماء المحققون بقدر ما أدركوا أهمية التخصص لتقدم العلوم، فإنهم في المقابل كانوا يعرفون ضرورة أن يحيط الباحث المتخصص بثقافة عصره وآفاق العلوم المتنوعة فيه، لما بين العلوم من ارتباط. حيث على العالم أن يكون واسع الثقافة، مطلعا على علوم عصره، وطبيعة علاقة كل علم بغيره من العلوم. وهذا ما يتجلى عند بداية الطلب العلمي، إذا الطالب يبتدئ طلبه بدراسة يطوف فيها بأرجاء العلوم، وقد يتعمق في علمين أو ثلاثة، وهذه هي الخطة العلمية المتبعة اليوم في بناء الشخصية العلمية، والمعتمدة في الأكاديميات المعاصرة في جميع التخصصات. (بن الصديق، 2013م، 49). وإذا كان المجتمع يحتاج إلى المتخصص، فهو يحتاج إلى المتخصص المدرك لانتمائه المجتمعي ودوره الاجتماعي وهويته الذاتية.

ومن المعترف به أن مصداقية ما يدلي به الفرد من آراء علمية تتوقف على مدى تخصصه في الموضوع مثار التناول، فضلاً عن إحاطته به؛ ذلك أن مقدار الثقة في تلك الآراء سيتناقص كلما خرج الباحث من تخصصه الدقيق ليدلي بآراء في إطار التخصص العام، وستنخفض أكثر في حالة تخصصات أخرى وهكذا؛ لذا علينا قبيل تلقف آراء معينة حتى لو كانت لأسماء رنّانة التأكد من أنها تقع في نطاق تخصصاتهم، فالانجراف وراء أثر الهالة لا يعدّ أسلوباً ملائماً في مجال حيوي كهذا. ولا غرو في ذلك، فعصر العلماء ذوي التخصص الدقيق، وإن كان هذا لا ينفي إمكانية تعاون أكثر من عالم للإدلاء بآرائهم في مسألة معينة كفريق عمل مشترك، شريطة ألاّ يتجاوز أحدهم حدود علمه وقواعد منهجيته. (فرج، 2005م، 27).

وأنه لا خيار أمام من يريد التقدم الرأسي في علم من العلوم سوى أن يخصص أكثر جهده ووقته له. والمكافأة المعنوية التي تنتظر ذلك المتخصص هي تلقي أقواله واجتهاداته في تخصصه بالكثير من الإصغاء والتقدير والقبول. والإسلام حين يوجهنا إلى التسليم لأهل الاختصاص فيما يجمعون عليه، إنما يغرس فينا مكرمة الإذعان للحقيقة، ولمن نظن أنه أكثر إدراكا لها منا. (بكار، 2000م، 84، 85). وإن العالم اليهودي الذي اخترع المادة المتفجرة، إنما جاء ذلك كثمرة لتخصصه العلمي، وكان إلى جانب هذا التخصص العلمي الدقيق يتمتع بثقافة توراتية ورؤية دينية توجه ملكاته وتوظف تخصصاته للعمل على تحقيقها وذلك في الوصول إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل المزعوم. (خليل، 1985م، 12).

إنه التخصص الذي يجعل كل فرد يعرف مواهبه في الحصول على مهنة معينة تجلب له قوته، وتضعه بالتالي في مركز معين في المجتمع. ومن المعلوم أن هذه المهن كلها تعبر عن مختلف الحاجات في المجتمع، ولا نستطيع أن نتصور مهنة دون حاجة معينة، وهذا يعني أن مركز الفرد في المجتمع يحدد على أساس الحاجة، التي تلبيها مهنته ويسدها تخصصه. (بن نبي، 1986م، 205). وقد لفت النبي صلى الله عليه وسلم، إلى وجود فروقات فردية بين أصحابه تمثل كل منها تخصصا بحد ذاته؛ حيث قال: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان بن عفان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيُّ بن كعب، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح". (رواه الترمذي 5/ 664، وقال الحاكم: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين).

يقول أحد الباحثين: "إن على المتخصص المعاصر أن يضع في حسبانه دائما أن نحوا من 10 - 20 % من المعلومات التي بحوزته قد شاخ، وعليه أن يجدده. ويرى عدد من الباحثين أن أعراض الشيخوخة تعتري المعلومات بنسبة 10%في اليوم بالنسبة للجرائد، و10 % في الشهر بالنسبة للمجلات، و10% في السنة بالنسبة للكتب. (بكار، 2001م، 126).

والعلوم لا تتقدم إلا من خلال البحث في جزئياتها الصغيرة، ثم إن أي تخصص لا يؤتى ثماره اليانعة إلا إذا تفوق فيه صاحبه تفوقا ظاهرا جدا، إلى درجة أن يصبح حجة أو مرجعا فيه. (بكار، 2007م، 63). والمتأمل في قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: 114] يجد أن الآية مُوجَّهةٌ إلى كل متخصِّص في أي علم أو مهنة؛ لتطوير علمه، وما يقتضيه هذا العلم من مهارات وكفاءات.

والحقيقة أن معرفة الخيارات المتاحة وفهم طبائعها، وكيفية التعامل معها تحتاج إلى درجة عالية من العلم المركز والتخصص العميق وهذا ما يفتقده كثير من الناس. ومما لا يدعو للشك تلك القيمة العلمية لمنهج الفصل بين التخصصات، فهو يؤسس المعرفة على العمق العلمي، كما يبعدها عن الضعف والتسطيح، كما أنها تعزز من دقة النتائج العلمية وسلامتها.

ولعل من أخطر المشكلات، التي يعاني منها نظامنا التعليمي، في العالم الإسلامي، والتي لا بد من حسم الأمر فيها، هي مشكلة عدم الاعتراف بأهمية التخصص، سواء في ذلك العلوم الإنسانية، أو العلوم التجريبية، وإنهاء مرحلة الادعاء الخادع، والرجل الملحمة، الذي يدعي المعرفة في كل شيء، حيث لم يعد العمر ولا العقل، يتسع إلا لاختصاص واحد، أو جزء من اختصاص، يمكّن صاحبه من الإحاطة بالعلم، والتطوير له، والإبداع في نطاقه، واستيعاب التراكم المعرفي، ذلك أن الاختصاص، أصبح من لوازم التقدم العلمي، وتكامل التنوع المعرفي، إضافة إلى ما يترتب على الاختصاص، من متانة بناء المجتمع، وتماسك هياكله، ونمو العمل المؤسسي، بحيث سيصعب على الفرد في المستقبل أي إنجاز بعيدًا عن التكامل مع الآخرين، وبذلك تسهم فلسفة التعليم المتخصص، بالقضاء على الروح الفردية، والتبعثر والتمزق الاجتماعي، الذي يعتبر من أخطر آفات المسلم اليوم.

التخصص والبحث العلمي:

الباحث الجيد هو الذي يكون على دراية تامة بأحدث ما توصل إليه العلماء في مجال تخصصه الدقيق، ويكون في نفس الوقت ملما إلماما كافيا بأصول المفاهيم العلمية المتصلة بموضوع بحثه، وذلك من خلال متابعته الدقيقة لطبيعة نمو هذه المفاهيم عبر مراحل تطورها في كل العصور. (باشا، 1998م، 42). ويتطلب ذلك من الباحث التربوي أن يلم إلماما واسعا بميدان تخصصه التربوي، وأن يكون لديه حب متواصل للاستزادة من المعرفة في ذلك الميدان، يضاف على ذلك امتلاك القدرة على نقد المعرفة الحالية رغبة في إنتاج معرفة موثوقة، وفارق كبير بين أن يملك الباحث المعرفة التربوية أو يرددها كما هي، وبين أن تكون لديه القدرة على نقدها وتطويرها وتجاوزها إلى ما هو أفضل منها. (النقيب، 1990م، 217). ولا شك أن هناك خلطًا بين مفهوم الثقافة، ومفهوم العلم، في الذهن المسلم المعاصر، فالثقافة في هذا المجال، تعني: أن يعلم الإنسان شيئًا عن كل شيء، حتى لا يعيش غريبًا معزولًا عن الحياة العامة، أما العلم فهو معرفة كل شيء عن الشيء، وهذا هو التخصص المفضي إلى الإبداع.

إن التخصص العلمي الذي هو من سمة العصر الحاضر ليس معناه أن يقف العالم عند مجال تخصصه فحسب من غير التفات إلى ما سواه من المجالات، وإنما يعني الفهم العميق في ميدان من الميادين دون تعصب، وأن يكون هذا الفهم مربوطا بدائرة واسعة من الثقافة العلمية العامة، مع تحرير حدود التماس والالتقاء بين تخصصه وغيره من التخصصات. وكلما زاد نصيب صاحب التخصص من هذه الثقافة زاد عمقه في تخصصه. فالتعاون بين العلماء ضرورة تفرضها الدراسة العلمية الجادة المتكاملة، كما يفرضها التخصص العلمي الدقيق الذي أصبح سمة الحياة العلمية المعاصرة. (عكيوي، 2009م، 14).

على أنه إذا كان هذا التخصص المتزايد قد أفاد العلم فائدة لا شك فيها، فان فائدته بالنسبة إلى تكوين العلماء أنفسهم، وبالنسبة إلى شخصية المشتغل بالعلم، هي شيء يمكن أن يكون مثارا للجدل. ذلك لأن العالِم الذي يكرس حياته كلها لمجال شديد الضيق في فرع من فروع العلم، يتحدد تفكيره بهذا المجال ويعجز عن الخروج عنه، لاسيما وأن مقتضيات البحث العلمي، وكمية المعلومات اللازمة له، تزداد دواما في أي ميدان، مهما كان ضيقه. وهكذا يمكن أن يصبح كثير من المشتغلين بالبحث العلمي أشخاصا ذوي إنسانية ناقصة، وأبعاد ضيقة: فهم ينمّون إلى أقصى حد ملكة واحدة من ملكاتهم، في ميدان محدود جدا، بينما تظل بقية الملكات بلا نمو، ور بما ازدادت تخلفا. وقد شبّه الفيلسوف الألماني نيتشه هذا المتخصص بإنسان يتألف من أذن أو أنف هائلة الحجم، وبقية جسمه ضئيل إلى جانبها، هذا على الرغم من أن التخصص في عهد نيتشه، الذي يفصلنا عنه قرن ونصف تقريبا، كان أقل مما هو الآن بكثير.

ويمكن القول أن العالِم الذي يريد أن ينجح في ميدانه مضطر، في وقتنا هذا، إلى أن يعرّض نفسه لهذا الخطر: فإزاء ثورة المعلومات والانفجار المعرفي، وإزاء ذلك الطوفان المتعاظم من الأبحاث والمقالات والكتب العلمية، يجد العالم نفسه أمام أحد أمرين: أما أن يحرص على استيعاب ما يكتب في ميدان تخصصه، حتى لا يكرر شيئا توصل إليه غيره من قبل، وحتى يلم بأحدث التطورات فيه، فيجيء ذلك على حساب تنمية قواه الخلاقة، وأما أن يمارس قدراته الإبداعية ولا يكرس وقتا أطول مما ينبغي في قراءة ما هو موجود بالفعل، فيكون مهددا بتكرار بحث أجراه غيره، أو بالبدء من جديد في طريق سبق أن سلكه آخرون. (زكريا، 1978م، 236).

والتخصص المفرط لا يؤدي فقد إلى عزل المشتغل بالبحث العلمي عن كافة جوانب المعرفة الأخرى، بل يعمل أيضا على توسيع الفجوة بين العلم والإنسان، إذ يحول العلم إلى أداة فنية مفرطة في التعقيد، وإلى مجموعة من الإجراءات التي تقتضي تدريبا وتعليما مكثفا، ومن ثم يتباعد العلم تدريجيا عن الإنسان في وجوده المتكامل المحسوس، وفي مشاكله الواقعية العينية، ويزداد الباحث العلمي عجزا عن رؤية الصورة الكلية للحياة الإنسانية، لأنه يفني عمره في قطاع شديد الضآلة من قطاعات عالم الطبيعة أو الإنسان. وإذا كان العلم في طبيعته الأصلية، يستهدف أساسا أن يزيد الإنسان وعيا بإنسانيته، عن طريق زيادة معرفته وتوسيع أفقه الفكري، فيبدو أنه يتجه الآن، بعد أن أحرز هذا القدر من التقدم، إلى عكس هدفه الأصلي، أي إلى إقامة حواجز لا يمكن عبورها بين الاشتغال بالعلم وبين المنابع الأصيلة للحياد الإنساني.

والخروج من آن لآخر عن مجال التخصص يتيح للمرء أن يعود إليه بعد ذلك بعقل أكثر تفتحا، وبرؤية أشد خصبا، مما لو كان منغمسا فيه بلا توقف، كما أن العقل العلمي في حاجة إلى فترات من الراحة لاستعادة نشاطه وحيويته. وهذه مبررات صحيحة بغير شك، ولكنها ليست كافية، إذ أنها ترتد في نهاية الأمر إلى العلم المتخصص نفسه، وتجعل من العناصر الثقافية في شخصية العالم مجرد وسيلة يستعين بها على تحقيق هدفه الأول والأخير، وهو الوصول إلى نتائج أفضل في ميدان تخصصه. (زكريا، 1978م، 238 - 239).

وإحساس العالِم بنبض الإنسانية، واكتسابه رقة المشاعر التي يبعثها الفن في النفوس، قد أصبح شيئا ضروريا في عصرنا الحاضر بوجه خاص، حيث يؤدى التخصص المفرط إلى جفاف في الروح لا تبلله إلا قطرات من نبع الفن، وحيث تهدد العالم قوى تريد أن تستغل كل إبداع علمي لأغراض معادية للإنسان، وهي قوى لا يستطيع أن يصمد أمامها إلا علماء يحرصون على حفظ روابطهم بكل ما هو شريف ورقيق وصاف في النفس الإنسانية. (زكريا، 1978م، 243).

ويكتفي معظم الباحثين بالبحث والتبحر في تخصصاتهم بمعزل عن غيرها من المجالات البحثية التي يرونها مفارقة لما يدرسون وبعيدة عما يبحثون، ويسعى أعضاء هيئة التدريس بالجامعات في بلادنا للتنقل على خط مستقيم لا ينحني ولا ينثني، يبدأ بالماجيستير مرورا بالدكتوراه وأبحاث الترقية للأستاذ مساعد وصولا إلى أبحاث الأستاذية وما بعدها في نفس التخصص ونفس القسم بل في نفس مجال الدراسة ومساقها داخل القسم. فمن كان تخصصه الشعر -مثلا- لن تجد له دراسات سوى في الشعر، ومن كانت صنعته المناهج لن يقرب غيرها من التخصصات حتى التربوية منها. (عبد اللاه، 2020م). ولا بد من الملاءمة، ويقصِد بها بالدرجة الأولى التخصص؛ أي ملاءمة تكوين الباحث للمبحث الذي يريد أن يبحث فيه، ويدعو إلى التخصص وإلى تخصُّصِ التَّخصُّص. كما أن الثورة الصناعية ومِن بعدِها الثورة التكنولوجية أتاحت ملاءمة الوسائل والإمكانيات للمباحث العلمية كالطِّب والفلك؛ حيث تم اختراع أجهزة غاية في الدقة والفعالية ومتنوعةِ المهام، مما أتاح كمًّا هائلًا من المعرفة والاكتشاف والتطور.

الانتقادات الموجهة للدراسات التخصصية:

لعل ما يشكو منه العلماء الآن قضية التفتيت في المعارف، فالتخصص الدقيق جعل الناس ينحصرون في دوائر ضيقة، فجاءت نظرتهم للحياة نظرة جزئية جدًّا، نظرة غير إنسانية لأنها غير متكاملة، إن النظرة المتكاملة هي التي يستطيع الإنسان من خلالها التعرف على قوانين الله تعالى في الكون، والقيام بواجبات الخلافة في الأرض على أحسن وجه، وكلما تعرّف الإنسان على قوانين أكثر كلما كانت قضية عمران الحياة على الأرض أيسر. (النجار، 1988م، 72).

والعلوم التجريبية هي في حقيقتها معارف جزئية زادها ضيق التخصص يوما بعد يوم تحديدا، والعلم الجزئي ليس في مقدوره أن يجيب على تساؤلات الإنسان الشاملة، وهذا يؤكد على حاجة الإنسان في الأمور التي لا يمكنه إدراكها إلى علم أكبر من علمه وبالتالي يؤكد على ضرورة الرسالات السماوية وعلى أن الدين ليس أمرا ماديا، بل هو فوق المادة، ومن ثم فليس في مقدور المعارف الجزئية أن تتعارض معه.

لقد كان عهدُ الحداثة ناجحاً جداً في تحقيق وُعُوده بزيادة المعرفة والتقدم في متطلبات الحياة المادية الخارجية، لكنَّ الثمن كان باهضاً؛ فالحداثة ولّدت تركة هائلة من المشكلات الكونية غير المسبوقة، تهدِّد مستقبل الإنسان، ومستقبل الكرة الأرضية، التي يعيش عليها تهديداً جديّا. فقد نتجت عن النموِّ الأسّيّ للمعلومات والبيانات كتلةٌ ضخمة من المعرفة، كان لا بدّ من تقسيمها إلى حقول وتخصصات، من أجل التعامل معها، وكلَّما زادت ضخامة هذه الكتلة لزم الاستمرار في التجزئة والتقسيم. هذه التجزئة المستمرة للمعرفة المتزايدة في النمو أنتجت أنظمة تربوية ومجتمعات مغرقة في التجزئة والتخصص الفرعي، وأنتجت- من ثَمَّ-أفراداً يركزون بطريقة مبالغ فيها على أجزاء الحقيقة المختزلة، والراهنة، والمباشرة؛ ويفتقدون بطريقة متزايدة الوحدة التاريخية للصورة الكبيرة الكلية الأقل وضوحاً. وبعبارة أخرى؛ في الوقت الذي أصبحنا فيه أناساً نعرف أكثر فأكثر عن الأشياء الأقل فالأقل، فإنَّنا في الوقت نفسه للأسف أصبحنا أناساً نعرف أقل فأقل عن الأكثر فالأكثر (ملكاوي، 2016م، 27، 28).

وما يحوّل الفصل بين التخصصات إلى هدف قائم بذاته هو المؤسسة الأكاديمية وطقوسها وصناعتها وقوانينها الداخلية التي تنفصل عن موضوعها، وتصبح هدفا ومجتمعا قائما بذاته. فالحدود تتمأسس ومعها حراس الحدود. والتنافس في السمعة والشهرة في

مجتمع شبه مغلق ذي ثقافة فرعية، والتسابق إلى الترقية والتثبيت بالنشر في الدوريات المتخصصة والالتزام بقواعد النشر، كلها تثمر نجاحات وإنجازات علمية في كثير من الحالات، وهي تؤسس مجتمعا وثقافة فرعية يخيل لها أحيانا أنها قائمة بذاتها، وتعتمل في أروقتها سياسة داخلية، وتدور صراعات لطيفة دائما، ولكن من المهم أن نستدرك أنها حروب لا يموت فيها أحد. والحقيقة أنه من النتائج المرافقة الإيجابية لهذه العملية في الدول المتقدمة (والنادرة في بلداننا حتى الآن) نشوء بيئة متسمة بالود، ومجتمع أكاديمي تسود فيه ظروف أشد ملاءمة للعيش الكريم، وأكثر ترحيبا بالفردية، وأكثر تعددية وأقل تعصبا. (بشارة، 2018م، 5 - 6).

وإذا كان لابد من الإقرار بأن مقتضيات التعمق والتوسع في فروع المعرفة، قد فرض التخصص كواقع وشرط لتحقيق الدقة العلمية واستيفاء المهارة العلمية، فذلك لا يلغي حقيقة أن تطور تنظيم العلوم قد أوجد مناخاً ذهنيّاً زاد من إنعاش النزوع التجزيئي الذي لم يكن في صالح العلم كأداة للتقدم بمعناه التكاملي، ولا لصالح العلماء بصفتهم عناصر قيادية في هذا التقدم: فالتخصص الشديد المنعزل يخلق صعوبات، وهو ـ كما يصفه ((شرودنغر Schrodinger)) ـ "ليس فضيلة، ولكنه شر لابد منه". غير أن ثمن هذا الشر هو العقم ـ كما يقول عالم الرياضيات ((موريس كلارين)) الذي يضيف: "ربما تطلب التخصص مهارة فائقة، ولكن قلما يكون ذا معنى"؛ لأن "المعرفة المعزولة التي تحصلها طائفة من المتخصصين في حقل ضيق لا قيمة لها البتة، إلا إذا أدمجت في سائر حقول المعرفة". (أغروس وستانسيو، 1989م، 115).

لهذا إذا كان لا يحسن بالعلماء أن يقبعوا في مخابرهم ويحبسوا عقولهم في الموضوع الذي انقطعوا له إيثاراً لما أدى إليه التحليل من تعمق في معرفة الأجزاء، فإنه ينبغي عليهم – كما يقول (صليبا، 1967م، 352 - 353) - أن يسعوا إلى "إدراك علاقات الأجزاء، ثم جمعها في نظريات كبرى تصور حقيقة الكون أكمل تصوير ، فإن قيل بأن (التخصص العلمي) الدقيق أولى بالتقديم، وأن تقدم العلم رهن بتقسيم العلم بين العلماء، فذلك لا يتعارض مع مقولة أن الحقائق العلمية متصل بعضها بعضاً، وإن العالم إذا كان بهذا الاتصال أعرف، كان إلى إدراك حقيقة علمه أقرب"، وإذا كان بالإمكان تصور المعارف كطبقات تقوم كل طبقة على ما دونها، وتفضي إلى ما فوقها، وتصل بين الصرحين معابر فكرية تجرى فيها تيارات يتبادل فيها التجريد والتجريب، أخذاً وعطاءً، فغني عن البيان أن هذا الترتيب لم يعد ذا أهمية إلا من حيث التأكيد على أن حقول المعرفة لا يمكن أن يتقدم أي منها بمعزل عن الآخر إذا ما أريد لها أن تبقى معرفة متطورة وبناءة (سعيدان، 1988م، 19).

وإيمانًا منا بأن المعرفة المجزأة والمنفصلة لا تجيب عن أسئلة هذا الزمان، في حين أن الحوار الجدلي بين المعارف والإخصاب المتبادل بين المفاهيم، هو الذي يُقَوي العقل، ويطلقه من قيود المرجعيات الجزئية التَّاريخية التي تريد أن تهمين وتسود، فمعيار التَّكاملية بين علوم الوحي وعلوم الإنسان الذي تسعى البحوث العلمية إلى تطويره، هو الذي يخلق التّجارة الفكرية التي مبناها التنافس والتَّباري والتَّواصل الإيجابي، ويلبي حاجات الإنسان المحسوسة المعاصرة التي باتت تباين الحاجات التاريخية الموروثة. (بلعقروز، 2020م، 11). إن البحث فيما وراء الأمور المستقرة صحة عقلية ونفسية للباحث العلمي، ذلك لأن فيه تحررا من أسر الواقع والوقائع، وارتفاعا فوق ما هو جزئي تفصيلي، وتجاوزا لمعطيات الحس، وارتفاعا إلى معان أكثر كلية واتساعا، وربما أكثر صدقا. فما أتعس العلم وأبأس الباحث فيه لو أنه قضى حياته غارقا في تفاصيل التفاصيل، سائرا في دروب مرسومة ضيقة لا يحيد عنها، أسيرا في عدد من الحلقات والسلاسل التي تقيد مجال حركته فتحد من نظرته فتحبس روحه قبل أن تحبس فكره عن رحابة كون الظاهرات التي يدرسها، والكون الكبير الذي تتكامل فيه معاني الموجودات، كما تتناغم فيه دورات الظاهرات. (فان دالين، 1997م، 4. مقدمة د. سيد أحمد عثمان، لمحة إلى ما وراء المنهج).

والواقع أن التخصص المغلق، الذي يفتقر لقنوات الاتصال بالعلوم المجاورة أو المغذية أو المضيئة، قد يؤدي بأصحابه إلى الجهل بالكثير من أبعاد المعرفة الإنسانية المهمّة، وهذا ما أخذ يشعر به الجميع، ومنهم الطلاب، ففي عام 1964م قام (P-Marris) (من إنكلترا) بدراسة حول شكوى الطلاب بخصوص ما يتلقونه من معارف، فنقل عن أحدهم قوله: "إنه لشيء سيء حقاً أن تزداد معرفتك ضيقاً يوماً بعد يوم بسبب التخصّص، إنني أفضل نظرة أوسع، لقد درست العلوم طيلة حياتي، ولكن معرفتي بالتاريخ وما إليه محدودة جداً..."؛ ونقل عن آخر في جامعة «ليدز» قوله: "أظن أن الدراسة يجب أن تكون أقل تخصصاً، الدروس في وضعها الراهن تتعامل مع الفروع النظرية فقط من العلوم الرياضية، إنني أعتقد أنك يجب أن تضمّن الدرس بعض الأفكار حول الكيفية التي يمكن بها تطبيق الرياضيات على العلوم الأخرى، وفي النهاية كيفية تطبيق الفلسفة على العلوم الاجتماعية، إنني أعتقد أنّ هناك نقصاً كبيراً في إظهار كيف تتكامل الرياضيات مع الموضوعات الأخرى، إننا لا نستطيع أن نقيم حدوداً حول الموضوعات العلمية المختلفة أو نصنفها في صناديق صغيرة" (رضا، 1975م، 229 - 230).

والتخصص المفرط لا يؤدي فقط إلى عزل المشتغل بالبحث العلمي عن كل جوانب المعرفة الأخرى، بل يعمل أيضا على توسيع الفجوة بين العلم والإنسان، إذ يحوّل العلم إلى أداة فنية مفرطة في التعقيد، وإلى مجموعة من الإجراءات التي تقتضي تدريبا وتعليما مكثفين، ومن ثم يتباعد العلم تدريجيا عن الإنسان في وجوده المتكامل المحسوس، وفي مشكلاته الواقعية العينية، ويزداد البحث العلمي

عجزا عن رؤية الصورة الكلية للحياة الإنسانية، لأنه يفني عمره في قطاع شديد الضآلة من قطاعات عالم الطبيعة أو الإنسان، وبمرور الزمن قد يعتقد أن المسرب الضيق الذي يمر فيه هو الحياة بأسرها، ولا يتخيل شيئا مختلفا عنه، أو متناقضا معه، أو حتى مكملا له. (حسن، 2017م، 75).

ويمكن القول بأن الاتجاه المتزايد إلى التخصص تظهر آثاره في مجال العلوم الاجتماعية خاصة، وفي الدول النامية بوجه أخص؛ فأزمة العلوم الاجتماعية نشأت من الرغبة في الاتجاه نحو التخصص الدقيق، وذلك تمشياً مع متطلبات العلم الحديث، ويمكن القول بأن ما تحقق من إنجاز في مجال العلوم الطبيعية يرجع إلى الإمعان في التخصص، إلا أن التخصص الدقيق في مجال العلوم الاجتماعية أدى إلى انحصارها في دراسة موضوعات جزئية، وابتعادها عما هو إنساني، وانفصالها عن أحداث الحياة الاجتماعية (أبوزيد، 1970م، 204).

والتقوقع في دهاليز التخصص الضيقة يعمل على تسطيح الإنسان أو على الأرجح يفقده البعد الثالث الذي يتمثل في عمقه الإنساني، بل ويحد من قدرته على البيان والتعبير المجنح البليغ، فلو لم يكن أرسطو عالما بالحيوان وفيلسوفا وصاحب منطق بل وواضع أصوله، أقول لو لم يكن أرسطو يجمع بين كل هذه المجالات لما واتته القدرة على التعبير بهذه الطريقة المكثفة (الإنسان حيوان ناطق). ولما استطاع أن يصوغ هذه المقولة في هذا القالب البليغ المختصر، والدال الذي استطاع أن يصمد كل هذه القرون، ويشير إليه الكتاب والباحثون في كل اللغات الحية ويفسرونه أو يؤولونه بطرق شتى. (فرج، 2021م، 195 - 196).

وينعي (راغب، 2002م، 28) على بعض الأدباء والمفكرين والكتاب تقوقعهم في أبراجهم العاجية بعيدا عن مجريات الأمور حتى يتفرغوا لإخراج إنتاجهم إلى الوجود، واصفا هذا السلوك بالإغراق في الوهم والسذاجة؛ إذ الأديب لا يستمد مضمونه الفكري من بنات أفكاره حينما يختلي بنفسه، وإنما يسعى لاكتشاف القوانين التي تحكم العلاقات بين الإنسان والمجتمع والطبيعة والكون ثم يجسدها في أعماله فيصبح الإنسان أكثر وأعمق وعيا بنفسه وبحياته وبعصره وبواقعه، ليس من خلال المضمون الفكري الذي يقدمه العمل الأدبي فحسب، بل من خلال العلاقة العضوية بين هذا المضمون والشكل الفني الذي يشكل التجربة الجمالية والنفسية التي يمر بها المتلقي فتعيد صياغة فكره ووجدانه وتجعلها أكثر اتساقا مع قوانين المجتمع والكون والطبيعة، ولهذا يتحتم على الأديب الواعي الناضج أن يسبر غور واقعه، وأن يصل إلى أعماق أعماقه حتى يستخرج عروق الذهب من كهوفه المظلمة الموحلة، لا أن يعتزل في برجه العاجي فتنفصل جذوره عن التربة الخصبة التي تمد أدبه بالحياة والنماء.

وقد انتقد الكسيس كاريل صاحب كتاب (الإنسان ذلك المجهول) المتخصصين، الذين ينكفئون على ذواتهم في دوائر ضيقة يتخصصون فيها، وينعزلون عن العالم، ولا يدرون بما يدور حولهم، وهذا ليس في صالح النظرة الإنسانية التكاملية الشاملة، التي تخدم الإنسان في النهاية. فالنظر الجزئي المبتسر للإنسان لا يخدمه، ومن المفيد جدا أن يحاول المتخصص، الذي يدرك جزءا من كل، أن يعنى بتخصصه في إطاره الصحيح من الكل، غير مبتور أو منبت الصلة عنه، فللجوانب والتخصصات الأخرى - بلا شك - صلة ما بتخصصه. (فرج، 2021م، 210).

والإغراق في التخصص يحول دون فهم الواقع ودون فهم حاجات الإنسان المختلفة من منظور شامل، إذ أن مجال التخصصات هو الجزئيات، وفهم الواقع الإنساني يحتاج إلى رؤى ونظريات كلية لا تتوفر عادة عند الاختصاصيين. (بكار، 2010م، 70، 71). والغارقون في المسائل الدقيقة، لا يكونون في العادة مهيئين ذهنيا للتفكير في القضايا الكبرى في تخصصاتهم. وأمواج التقدم العلمي تدفع بالمتخصصين دائما نحو الحافة. وإذا ارتفعت درجة التخصص لدى إنسان ما فهو يتعامل دائما مع حقائق فرعية.

لقد اتسع عالمنا على مستوى الماكرو (الأجرام - النجوم - الكون) وعلى مستوى المايكرو (الذرة - الجزيء... إلخ)، كما يشير إلى ذلك الدكتور المسيري، واتسع نطاق المعرفة بشكل غير مسبوق. فإذا أضفنا إلى هذا مسألة التخصص الدقيق (وهو أن العالم الحقيقي هو الذي يعرف مجال تخصصه تمام المعرفة) فإننا تدريجيا نواجه العالِم المتخصص الذي يعرف الكثير عن تخصصه الضيق ويجهل الكثير عن أي شيء آخر، (فالعقل الإنسان غير قادر على استيعاب كل شيء). وقد قال أحدهم مازحا: "إن التخصص هو أن تزداد معرفة بموضوع تخصصك الضيق، ثم تزداد المعرفة اتساعا والموضوع ضيقا إلى أن تعرف كل شيء عن لا شيء" (المسيري، 2005م، 267). وعندها يصبح هم الباحث، الذي يدور في إطار أدنى مستويات التخصص، أن ينقل الواقع كما هو، وأن ينقل التفاصيل والمعلومات المتناثرة كما هي دون ربط أو تجريد، وهذه الإمبريقية السطحية لا تفرق بين مادة البحث، (التجميعية الإرشيفية) وعملية البحث التحليلية التفكيكية التركيبية.

وقد تبيّن أن الدراسة التي تغلق بعض النوافذ، لا تمكن من الوصول إلى معرفة واقعية بالظواهر، والنموذج الذي يحصر نفسه في تخصّص بعينه، يغفل التفاعل والحوار الذي يفرضه تعقّد الظواهر، وأن الفهم الحقيقي للخطاب يتحقّق بالإنصات إلى الوجود الذي يسكن لغته. (بلعلي، 2017م، 272). ويظل الباحث الغارق إلى أذنيه في التفاصيل الدقيقة لبحوثه المتخصصة الضيقة غير واع بتلك القضايا وغير مهتم بها أصلا وغير مدرك لدلالتها أو لمغزاها بالنسبة لما يقوم به من عمل، وهو يظن أنه يحسن صنعا وأنه يقف على أرض صلبة، في حين أنه في الواقع كمن يحرث في البحر أو يعطي ظهره للطريق الذي أعلن أنه ينوي السير فيه.

ومما لا زال بارزا في حياة المسلمين إلى اليوم التعصب للتخصص، حيث يدعي كل واحد من أقطاب التخصصات العلمية أن حال العالَم لن يصلح إلا إذا أخذ بالأفكار والمنطلقات التي يوفرها ذلك التخصص. (بكار، 2000م، 201). ويفرض هذا المقوم البعد عن التعصب لعلم دون علم، فكثير من الباحثين يتعصبون لتخصصاتهم بالدرجة التي تجعل بعضهم يزدري ويحتقر العلوم والتخصصات الأخرى، جاعلا الفضل كل الفضل لعلمه الذي تخصص فيه. ومثل هذا لو قرأ قول الإمام (ابن حزم) "من طلب علوم العرب وازدرى سائر العلوم، فإنه بمنزلة من ليس في يده من الطعام إلا الملح" (ابن حزم، 1983م، 4/ 87)، ويظن أنه ليس هناك أفضل منه، ولعرف كَمّ الإفادة التي ستعود عليه وتلافي الضرر الذي قد يتوقعه.

والتخصص الدقيق ليس فضيلة وإنما هو تضييق للأفق وتسطيح للحكمة. إن الحكمة ضرورية للعلم وإن الفن متصل بالعلم، ولذا كان علماء الإسلام موسوعيين يبحثون عن الواحد الحق البديع في كافة تجلياته. فنرى الحسن بن الهيثم مثلا فقيها ولغويا وموسيقيا بجانب علمه بالرياضيات والميكانيكا والبصريات (فهمي، 1993م، 111). والتخصص يشبه بقرة أفلاطون عندما يلمس كل واحد عضوا فيها، فإنهم جميعا وفي نهاية المطاف لا يشعرون بوجود حيوان.

والتخصص يعمل على نمو الإنسان من جهة واحدة فقط ويعطله من سائر الجهات (شريعتي، 1984م، 81). والتخصص يسبب انغماس الإنسان في إطار محدود وصغير جدا، مجردا عن المجتمع، بصورة يصعب معها لمسه كحجم واحد شامل. وبعبارة أخرى؛ في الوقت الذي أصبحنا فيه أناساً نعرف أكثر فأكثر عن الأشياء الأقل فالأقل، فإنّنا في الوقت نفسه للأسف أصبحنا أناساً نعرف أقل فأقل عن الأكثر فالأكثر.

وعلينا أن ندرك جيدا أن الفتوحات العلمية الكبيرة تأتي من الأشخاص متعددي الاهتمامات. والسبب في ذلك هو أن هؤلاء لا يسجنون أنفسهم في اختصاصهم. يقول الرياضي والفيلسوف الأمريكي موريس كلاين (Morris Kline):" إن ثمن التخصص هو العقم. وربما تطلب التخصص براعة فائقة، ولكن قلما يكون ذا معنى". لأن التنوع في الاهتمامات يخفف من تأثير المنظومة الذهنية التي يولدها الاختصاص عند صاحبها، أي من سيطرتها على تفكيره، لأن ثمة تغذية دائمة من خارج الاختصاص تمنع ترسخها، فضلاً عن فوائد أخرى. (باكير، 2018م، 81).

ولا ريب أن الانحصار في التخصص كثيرًا ما يؤدي إلى التقوقع، وإغلاق الأبواب على النفس، وجهل ما عند الآخرين جهلاً كليًّا. وهذا ما تحاول بعض الجامعات الحديثة تفاديه؛ بطرح بعض المقررات المشتركة لجميع طلابها من كل التخصصات نظرية وعملية، حتى توجد بينهم قاسمًا مشتركاً من الثقافة والنظرة الموحدة للقضايا الكبرى. والخطر على كل حال ليس في التخصص، إنما في الازدواج الذي يفرز أناسًا لا يعرفون من الدين شيئًا، وآخرين لا يعرفون عن ثقافة العصر شيئًا.

والإفراط الحالي في التخصصية قطَّع أوصال العلم وشتت مجالاته كما أصبح هذا المنهج قديما لا يتناسب مع الواقع ومستجداته للأسباب التالية (الحلوة، 2020م):

1- التغير المتسارع والطفرة المعرفية التي يخضع لها العالم أجمع بسبب سطوة العولمة والتقنية وثورة الحداثة، التي غيرت شكل العلوم ودمجتها مما سيدفع إلى وجود علوم جديدة وسوق عمل جديد يستخدم مجتمع المعرفة واقتصادياتها الجديدة، وهذا بدوره سيؤدي إلى تداخل العلوم وامتزاجها ومن ثم حاجتها إلى فلسفة جديدة وإطار جديد مسايرا لها.

2- زيادة التعقيد الذي نعيشه اليوم بسبب المشكلات التي ألمت بالعالم المعاصر فكرية وأيديولوجية واقتصادية واجتماعية وبيئية، وأبرزها جائحة كورونا التي جعلت علماء التخصص الواحد حيارى يقفون عاجزين عن حلها فرادى.

3- ضعف النتائج التي تنبع من تخصص واحد وعدم قدرتها على علاج مشاكل المجتمعات وتطلعات الناس من العلم اليوم، مما يستدعي وحدة المعرفة ودفع تشظيها بالتصدي لتلك المتغيرات.

4- الفصل الجائر بين المادة والروح، فأصبح كل منهما تائه بالنسبة للآخر، وكذلك الفصل بين المتضادات وإقصائها، وهذا ما انتفضت في وجهه الفلسفة المعاصرة، وذلك الفصل بين العلوم وتخصصاتها جعلنا في مأزق (قلق المتضادات)، فلو قلنا تخصصات دقيقة فهل الأخرى غير دقيقة؟ ولو قلنا علوما إنسانية، فهل العلوم العلمية تخلو من الإنسانية؟ وهذا موطن فلسفي يحفز الفكر على إعادة النظر في واقع العلم اليوم.

5- ما أنتجته المجموعات البحثية ومراكز الأبحاث البينية من نتائج جديدة جعلها جديرة بالنظر والتقدير، والسبب امتزاج العلوم فيها، إذ غيرت شكل المعرفة نحو الأفضل، وجعلت الطريق شبه معبد للدراسات البينية.

6- تهميش العلوم الإنسانية، فالطلاب الأقل قدرة يذهبون إليها، لذا فهم غالبا قد ينتجون معرفة هشة وليس لديها قدرة على حل مشكلات الواقع المعقدة المتضخمة والتي تئن منها مجتمعات اليوم، رغم أن قيادة التغيير الاجتماعي والفكري والثقافي يقع على عاتق العلوم الإنسانية، وهذا ما يجعلها في مأزق تحتاج فيه إلى مساندة غيرها من العلوم الأخرى، لتأخذ بيدها وتساندها حتى تشق طريقا جديدا آخر أعمق أثرا وأعظم شأنا.

إن الاقتصار على التخصص دون وعي بحقيقة الاتصال والتداخل والتبادل والتكامل بين المعارف والعلوم المختلفة، هو من عوامل تكوين الذهنية المحدودة. وهكذا فالمختصون إذا ما تحصنوا في جزرهم المعرفية المغلقة، كان ذلك بمثابة الإقفال لنوافذ الرؤية العامة، وهذا من شأنه أن يكشف عن ثغرات ذلك الحصن في أول ظهور خارجي.

ثالثا: الدراسات البينية:

التعريف بالدراسات البينية والمصطلحات المقاربة لها:

تُعد الدراسات البينية مطلبًا مهمًا في ظل التطور المتسارع في ميادين العلم والمعرفة والبحث العلمي، حيث انصرف كل علم من العلوم إلى التعمق في تخصصاته الدقيقة محققًا اكتشافات علمية مبهرة، حققت ثورة علمية وتكنولوجية كبيرة، ولكن هذه الكنوز المعرفية شابها التشتت وعدم وجود روابط تحقق الاستفادة التكاملية بين العلوم المختلفة، هذا إلى جانب إغفال دور العلوم الإنسانية والاجتماعية والمعيارية في إثراء سائر مجالات المعرفة والبحث العلمي، مما جعل الدراسات البينية مطلبًا عالميًا للجامعات والمراكز البحثية، لتلبية احتياجات المجتمع وسوق العمل، فضلاً عن فائدتها العظيمة للدارسين الباحثين لتكوين عقلية علمية أكثر شمولية وتكاملية.

وقد احتلت الدراسات البينية مكانة في الساحة المعرفية، وهي بمثابة (مجسات إبستمولوجية) تحدد تلاقح العلم مع العلوم الأخرى؛ ومن ثم ميلاد العلم، والمتفحص لتلك الدراسات يستطيع أن يستنبط منها ما يسد الفجوة بين البناء والتركيب المعرفي للعلم.

وتتكون كلمة بينية (Interdisciplinary) من مقطعين مقطع (Inter) وتعني بين، وكلمة نظام (discipline) وتعني مجال دراسي معين، أو عملية ربط وحوار بين علمين أو حقلين من حقول المعرفة. ومن هذا المنطلق فقد تم تعريف الدراسات البينية على أنها دراسات تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة الرائدة، أو العملية التي بموجبها تتم الإجابة على بعض الأسئلة أو حل بعض المشاكل أو معالجة موضوع واسع جدا أو معقد جدا يصعب التعامل معه بشكل كاف عن طريق نظام أو تخصص واحد. وبشكل عام فقد اتفقت آراء التربويين حول تعريف التخصصات البينية بأنها: "نوع من الحقول المعرفية الجديدة الناشئة من تداخل عدة حقول أكاديمية، أو مدرسة فكرية تفرضها طبيعة متطلبات المهن المستحدثة". (مفتاح، 2014م، 6).

والدراساتِ البينيةَ عالمٌ منهاجيٌّ وسيعٌ، لا يَحده حدٌّ، بل يمتدُّ أفقيًّا باتساع العلوم كافة، ويتعمَّقُ رأسيًّا بقدر رسوخ التخصصات الدقيقة منفردةً، ويتعملقُ تطبيقيًّا؛ حتى يصلَ الفجواتِ بين المادة والروح، بين الشهادة والغيب، بين الجسد والقلب، بين النظرية والتطبيق، بين القول والفعل، بين الوسيلة والغاية، بين الأرض والسماء، بين المشرق والمغرب، بين العقل والنقل، بين الآدابِ والفلسفة، بين الفنون الجميلة والعلوم البحتة. وعليه، فالدراساتِ البينيةَ منهجٌ ووسائلُ، يفرزانِ علومًا جديدة، ويتكشفانِ مساحاتٍ مجهولةً في هذا الكون الرباني المعمور، ويكشفانِ عن أسرارٍ، لم يكنْ بإمكان المنهاج التخصصي بقادرٍ على كشفها منفردًا. (صالحين، 2019م).

والدراسات البينية منهج يساهم في تبادل الخبرات البحثية والاستفادة من الخلفيات الفكرية والمناهج البحثية المختلفة بين الباحثين وإدماجها في إطار مفاهيمي ومنهجي شامل يساعد على توسيع إطار دراسة الظواهر والمشكلات وتقديم فهم أفضل لها الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى الخروج بنتائج دقيقة وتقديم حلول نافعة قابلة للتطبيق. (جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، 2017م، 6).

وبناء على ما سبق، يمكن القول إن الدراسات البينية هي تلك الدراسات التي تنزع نحو منهج يساعد في تبادل الخبرات البحثية والمعرفية؛ ومن ثم الاستفادة من الخلفيات الفكرية والمناهج البحثية المتباينة بين الباحثين والمفكرين وإدماجها في إطار مفاهيمي ومنهجي شامل يعمل على توسيع مجال دراسة الظواهر والقضايا سعيا نحو تقديم فهم أفضل لها. (فرج، 2021م، 189).

طبيعة الدراسات البينية:

إن العقل حين يقوم بالتوليف بين إمكاناته الفطرية وثقافته المكتسبة وبين المعلومات والمعطيات الواردة من مجالات وتخصصات مختلفة، يقدم لنا خدمة فكرية وثقافية عظيمة، إذ يكسر جمود الرؤى الأحادية ويوفر أفكارا ومفاهيم غنية وعميقة ومتماسكة. والفكر الفلسفي المعاصر بالرغم من كل هذا صار اليوم يبدي عناية أكبر بما تمخضت عنه الدراسات البيولوجية والفيزيائية المعاصرة، تلك الدراسات التي انتهت إلى أن "الاتصال هو جوهر الأشياء وحقيقتها الثابتة، وأن الانفصال هو حيويتها وروحها" (مفتاح، 1997م، 98). التي تدفعها للحركة والتغير. وهذه الجدلية بين الاتصال والانفصال هي التي تشكل روح التكامل بين كل مظاهر الوجود وأشياء العالم بما فيها الإنتاج المعرفي للأشياء.

وقد كانت الحركات (الدينية والتاريخية والفلسفية والطبيعية) جميعا تتساند ويعاون بعضها بعضا، فأصحاب المذاهب الدينية اعتمدوا في تعاليمهم على الفلسفة وتعاليم الكتاب والسنة، والمفسرون والمحدثون والفقهاء كانوا يستعينون بالشعر والأدب على تفهم معاني القرآن والحديث، والمؤرخون والقصاص يستمدون بعض معلوماتهم من القرآن والحديث، وهكذا، وقلَّ أن تجد في هذا العصر ما نسميه الآن تخصصا، فليس هناك عالم بالتفسير فقط، أو الحديث فقط، لأن هذا الدور إنما يكون بعد تنظيم البحث، وهو دور لم يصلوا إليه في هذا العصر. وكذلك كانت الدروس فيها تفسير، وفيها حديث، وفيها فقه، وفيها لغة، وفيها جدال ديني (أمين، 1969م، 163 - 164).

ولا تقتصر الدراسات البينية على صِنْف من العلوم، دون آخر، بل يمكن اكتشافُها، وتسخيرُها، بين كافة العلوم الإنسانية من جهة، وكافة العلوم الكونية من جهة أخرى، وكافة العلوم التطبيقية من جهة ثالثة. والرؤية البينية رؤية إبداعية تعتمد على حوار المناهج، وتلاقح الأفكار، وتعدد المنظورات في ربط الظواهر وتعميق الصلات بين القضايا. (صالحين، 2019م). وتؤكد الدراسات البينية على أن هناك طرائق متعددة للوصول إلى الحقيقة غير الطريقة الأحادية - المألوفة لدي وحيدي التخصص. (غانم، 2016م، 557).

وتشكل البحوث البينية (Interdisciplinary Researches) مجالاً خصباً للباحثين في العصر الحديث، لما تمثله من أهمية في دراسة ظواهر المجتمع المختلفة، وقضاياه ومشكلاته المعقدة التي تحتاج إلى عبور الحواجز والقيود المعرفية فيما بين العلوم الاجتماعية والطبيعية. ويمكن القول بأنه بعد عقود من التخصص المتزايد (Increased Specialization) على المستوى الرأسي - أي فيما بين العلوم الاجتماعية - والمستوى الأفقي - أي فيما بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية- تبين أن هناك اتجاهاً متزايداً نحو تمويل مشروعات وبرامج بحثية تحاول أن تعزز البحوث البينية بوصفها وسيلة لتشجيع التقدم العلمي والتكنولوجي، والاستفادة من المخرجات البحثية في التنمية الإنسانية وتحسين جودة الحياة. (عبده، 2016م، 156).

ويمكن القول بأن البحوث البينية تعتمد على تخطي الحواجز القائمة بين فروع العلم المختلفة من جانب، والانقسام بين العلوم من جانب آخر، بالإضافة إلى إمكان استعارة نظريات ومناهج وآليات البحث المختلفة واستخدامها في عمليات الدراسة والتفسير، إلى جانب تقسيم مشكلة البحث إلى عدة مستويات لتحديد آليات البحث الملائمة لكل مستوي. وفي ضوء ما سبق فإن البحوث البينية لا تعتمد فقط على الاستعانة بالعلوم الاجتماعية، بل قد يكون هناك استعانة بالعلوم الطبيعية، فالأمر يتوقف على طبيعة موضوع الدراسة، وذلك لكي نصل إلى فهم علمي وشامل للظاهرة موضوع الدراسة، ومحاولة فهم أبعادها وجوانبها المختلفة للوقوف على أسبابها المعقدة. (عبده، 2016م، 161).

تطور الدراسات البينية:

ظهرت في مطلع القرن العشرين حاجة الفيزياء إلى الرياضيات، وحاجة البيولوجيا إلى الكيمياء، فظهرت العلوم البَيْنية التي تؤكد أنّ التطور والتقدم في علم من العلوم يعتمد على علم آخر أو علوم أخرى. ولعله من اللافت للنظر أن الواقع العلمي المعاصر يشهد الآن تخصصات لا تسمى ولا يشار إليها إلا بصيغة الجمع؛ وذلك لجمعها بين عدد من التخصصات، ومن ذلك مثلا: العلوم البيئية، والعلوم الصحية، والدراسات النسوية، وعلوم الاتصال، والعلوم التربوية. (بن خود، 2015م، 17). وثمة علوم أخرى نبتت من رحم علمين أو أكثر كعلم (الكيمياء الحيوية) الذي جمع وزاوج بين البيولوجيا والكيمياء، وكذا الحال بالنسبة لعلم الفيزياء الحيوية (البيوفيزياء)، وعلم السموم الذي اعتمد على عدة علوم كعلوم البيولوجيا والكيمياء والفيزياء والطب والصيدلة، وغيرها. (فرج، 2021م، 193).

أهمية الدراسات البينية:

للتأكيد على أهمية الدراسات البينية يرى إدجار موران، نقلا عن (بن خود، 2015م، 7)، أن تاريخ العلوم ليس هو تاريخ المسار التخصصي فحسب، وإنما هو أيضا تاريخ تغير الحدود التخصصية، وهجرة بعض المشكلات والمفاهيم والمناهج من تخصص إلى آخر، وتشكل تخصصات هجينة، وهو كذلك تاريخ تكتل التخصصات والتصاق بعضها ببعض حتى إنه يقول: "إذا كان التاريخ الرسمي للعلم هو تاريخ التخصصية فإن تاريخا آخر متصلا به أشد الاتصال وغير منفصل عنه هو تاريخ التخصصية البينية، والتخصصية المتجاوزة، والتخصصية المتعددة". وتحظى العلاقات البينية بين التخصصات المختلفة بأهمية ملحوظة في المعرفة الإنسانية الحديثة نظراً للتطور المتسارع في ميادين المعرفة ومجالات البحث العلمي ومناهجه، والتحولات الكبرى في كافة ميادين المعرفة. ويمكن القول إن الدراسات البينية مرحلة من مراحل تطور العلم تلت مرحلتي الموسوعية والتخصصية.

وليس تداخل التخصصات المقصود والحوار بينها (تقليعةً) أو إملاءً خارجيا عليها، كما يصفها (بشارة، 2018م، 6- 7)، بل تعبيرا عن تداخل المجالات نفسها في المجتمع والفكر والثقافة. ولن يتسع المجال في هذا المقام لإيراد أمثلة حول توصل اقتصاديين إلى نتائج خاطئة نتيجة لعدم معرفة الثقافة السائدة في مجتمع ما، وتوصل علماء اجتماع إلى نتائج خطيرة بإطلاق تعميمات من دون معرفتهم تاريخ المجتمع الذي يدرسونه، ومؤرخون اختزلوا التاريخ في الصراعات بين الدول والسياسيين وتعاقبهم على الحكم، وهمشوا المجتمعات والعلاقات الاجتماعية والثقافية، وعلماء سياسة وعلاقات دولية لا يقدمون لنا فهمًا أعمق لما يدور من زملائهم الصحافيين؛ لأنهم أهملوا الاقتصاد والتاريخ والثقافة عند دارستهم السياسة والعلاقات الدولية؛ كما أن ابتعاد هذه التخصصات جميعها عن الحوار مع الفلسفة أفقدها شرفات مطلةً على الأسئلة الإنسانية الكبرى، وفوّت عليها فرصًا لصياغة الأسئلة المتعلقة بالبعد الأخلاقي للعلوم الاجتماعية، وزاوية نظر مختلفة ومهارات مهمة طورتها الفلسفة عبر تاريخها في شحذ المفاهيم والمصطلحات.

والمتأمل يرى أن الغرب قد تجاوزوا بالفعل السؤال: هل الدراسات البينية ترف؟ لأنهم انتفعوا تطبيقيًّا بتجسيرِ الهوَّةِ بينَ وشائجِ العلومِ؛ مِنْ خلالِ الدراساتِ البينيَّةِ؛ فعلمُ النفس تمَّ تسخيرُه لاكتشافِ علاجاتٍ لبعضِ أسبابِ الجريمةِ، وعلومُ الحاسوبِ باتتْ تخدمُ علوم اللسانياتِ (اللغاتِ واللهجاتِ) خِدْماتٍ جوهريةً لا غَناءَ عنها، وعلمُ الهندسةِ الوراثية أصبح جزءًا لا يتجزأُ مِنَ العلومِ الطبيةِ؛ بكافَّةِ فروعِها،

على حينْ أصبحَ علمُ الرياضياتِ مُكَوِّنًا أساسيًّا في كافةِ التطبيقاتِ الفيزيائيةِ، والصناعيةِ، والتقنيةِ؛ مِنْ بابٍ أولى، والمنظومةُ متشابكةٌ، إلى حَدِّ التداخلِ، فضلاً- بطبيعة الحال- عَنِ الدراساتِ البينيةِ الظاهرةِ بَيْنَ علومِ اللغةِ، وعلومِ الشريعةِ، وبَيْنَ العلومِ النقليةِ، والعلومِ العقليةِ كافَّةً (صالحين، 2019م). وهذا التقدم الذي يحرزه العالَم الغربي اليوم في هذا المجال شكل تحالفات عديدة بين التخصصات في عدد من الجامعات بحيث تؤهل أساتذتها ليكونوا عابرين لعدة تخصصات تحت مسمى الدراسات البينية.

وتكمن أهمية الدراسات البينية في كونها تُبَشِّرُ بمنهاجية جديدة؛ تتضافرُ فيها كافةُ العلوم؛ لخدمة الإنسان، وتيسير استخلافه في الأرض، وتفعيل التسخير الرباني لما في السماوات وما في الأرض لمنفعة بني آدم، ومصالحهم العاجلة، والآجلة (صالحين، 2019م). فالبينية تفيد إعادة إنتاج التخصّصات بالبحث عما يمكن أن يوحّدها رغم اختلافها، فهي تحمل في داخلها التخصصات، ولا تتجاوزها (بلعلي، 2017م، 273).

وقد اكتسبت الدراسات البينية اهتماما كبيرا في السنوات الأخيرة باعتبارها فرعا هاما من فروع التعليم والتعلم، وقد كان تركيز العلماء في الأساس موجة نحو ترسيخ هذه الدراسات في العلوم التكنولوجية، وربطها بالعلوم الاجتماعية، والاقتصادية، والعلوم الإدارية. وتعد الدراسات البينية في تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية مجالًا خصبًا للإبداع الفكري والإنتاج المعرفي، حيث تتكامل فيها التخصصات بهدف حل المشكلات المتجددة في عالم البحث العلمي. كما أن الحاجة إلى إجراء الدارسات البينية أصبحت الآن أقوى من أي وقت مضى، ويرجع ذلك إلى أن العديد من المشاكل التي تهم المجتمع لا يمكن أن تحل بشكل كاف عن طريق تخصص واحد معين، وإنما تتطلب دراساتٍ بينيةٍ ذات رؤى واضحة تعتمد على الطرق الحديثة وعلى باحثين مؤهلين لإنتاج معارف جديدة.

يقول الامام أبو حامد الغزالي موضحا تلاحم العلوم الشرعية والعلوم العقلية وتكاملها: "اعلم أن العلم قسمين: أحدهما: شرعي، والآخر: عقلي، وأكثر العلوم الشرعية عقيلة عند عالمها، وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: 40]، فالعلوم الشرعية أكثرها عقلي، لأنه لا بد فيها من استعمال طلاقة العقل، وكذلك أكثر العلوم العقلية شرعي عند التحقيق، لأنه لا بد من مراعاة قيد الشرع، والجمود والتقليد لا يكونان فقط بالكف عن استعمال العقل، وإنما يكونان أيضا بالفصل بين ما هو شرعي وما هو عقلي، والاستغناء بأحدهما عن الآخر، فعدم استعمال العقل في الشرعي جمود وتحجر، وكذلك عدم الاهتداء بالشرع في العلوم العقلية جمود وتحجر، لأن الحق الواصل عن طريق الوحي لا يتعارض مع الحق الواصل عن طريق العقل الصحيح بالبحث والنظر". (الغزالي، 1910م، 22). والملاحظ أن الرواد المسلمون قد أخذوا بفكرة رئيسة عند تصنيفيهم للعلوم وهي وحدة العلوم والمعارف الإنسانية، وبالتالي؛ اعتبرت العلوم كلها فروعا لشجرة واحدة ترسل ثمرتها عبر تطوراتها المختلفة

أهداف الدراسات البينية:

لا شك أن حاجة الدراسات المعاصرة إلى البينية، تعبّر عن رغبة الإنسان في تجاوز اليقينيات القاتلة والحقائق الجزئية التي تؤدي إلى تكلس الفكر، وتأليه القناعات الشخصية، وفق تعبير (بلعلي، 2017م، 269)، وهذه الرغبة هي التي تدفع الإنسان إلى إدراك الظواهر وتفسيرها باعتبارها ظواهر معقدة، لا يمكن النظر إليها دفعة واحدة، بل ينبغي على الإنسان أن يغير موقعه في كل مرة تسفر له فيه عن وجه من وجوهها. والبينية ضرورة يفرضها منطق التفكير البشري ذاته وفي كل العصور، لكنها قد تصبح ظاهرة، تعبّر عن مرحلة بعينها وعن تحول معرفي شامل، مثلما هو الأمر في وقتنا الراهن، حين أثبتت العلوم المتخصصة السابقة، أنها عاجزة على الإجابة عن كل أسئلة الإنسان الكبرى، وعاجزة عن تفسير الظواهر تفسيرا شاملا.

والحداثة السائلة في الغرب أحدثت هزات عنيفة، حيث غيرت الجامعات والتخصصات فدمجت المؤسسات ودمجت العلوم والأشياء، وتولد ما نسميه الآن بالدراسات البينية بشكل قوي. وتعتبر الدراسات البينية إحدى عوامل الإنقاذ للدراسات الإنسانية، كما وصفها (البازعي، 2018م)، وربما يقف مستقبل العلوم الإنسانية على مثل هذه الدراسات البينية. والدراسات البينية تتيح لنا التأمل في دمج التخصصات ومزجها وفي الاستفادة من الحقول البحثية الكبيرة التي تجمع أكثر من علم في نفس الوقت. وبدت فكرة التداخل بين العلوم المختلفة وكأنها جاءت لكي تقدم حلولا لما اعتبر أنه مأزق وقعت فيه منظومة الفكر المبسّط. فجاءت الدراسات البينية كي تشكل محاولةً لتجسير الفجوة بين العلوم، بعد أن تشعَّبت وتشَظَّت على هذا النحو غير المسبوق.

ويمكن أن يطرح في هذا السياق سؤال: هل الدراسات البينية تعوق التخصص أم تثريه؟ والإجابة على هذا السؤال تؤكد في الحقيقة على أن الدراسات البينية تثري التخصص وتفتح له أفاقا جديدة لم تكن في الحسبان. كما تساعد على دمج المعارف الإنسانية مع بعضها البعض مولدة معرفة تكاملية شاملة تساعد الباحث على فهم موضوع بحثه، أو قضيته التي يتناولها.

ويمكن تشبيه الدراسات التخصصية بالفواكه المستقلة، فإذا تم تقطيعها على شكل طبق سلطة فواكه اعتبرت تخصصات متعددة، فإذا تم عصر هذه الفواكه مجتمعة صارت عصيرا، وعندها يمكن أن تشبه الدراسات البينية. بمعنى أنه حدث دمج وتداخل بين هذه التخصصات لتتحول إلى مكون جديد. إن هدف الدراسات البينية هو دمج المعرفة وإنتاج مقاربات جديدة، وتحقيق التكامل بين العلوم المختلفة. وهدفها ـ أيضا ـ إنتاج المعرفة وليس استهلاكها. (طرشاني، 2020م).

وقد حدد (مفتاح، 2014م، 9) مقاصد الدراسات البينية من خلال النقاط التالية:

1- دمج المعرفة: وتعني ربط وتكامل المدارس الفكرية والمهنية والتقنية للوصول إلى مخرجات ذات جودة عالية مبنية على العلوم الأساسية والطبيعية.

2- الإبداع في طرق التفكير: تعني تطوير القدرة على عرض القضايا ومزج المعلومات من وجهات نظر متعددة، لتحدي الافتراضات التي بنيت عليها، وتعميق فهمها، مع الأخذ في الاعتبار استخدام أساليب البحث والتحقيق من التخصصات المتنوعة، لتحديد المشاكل والحلول والبحوث خارج نطاق النظام الواحد.

3- تحقيق التكامل: وتعني إدراك ومواجهة الاختلافات بين التخصصات المختلفة للوصول إلى وحدة المعرفة المتكاملة والأكثر شمولا من المسموح به من قبل رؤية أي تخصص واحد.

4- إنتاج المعرفة: حيث أن الحاجة إلى إجراء الدراسات البينية الآن أقوى من أي وقت مضى، ويرجع ذلك إلى العديد من المشاكل المتزايدة التي تهم المجتمع، ولا يمكن أن تحل بشكل كاف عن طريق تخصص واحد معين، وإنما تتطلب دراسات بينية ذات رؤى واضحة تعتمد على الطرق الحديثة وعلى باحثين مؤهلين لإنتاج معارف جديدة.

الانتقادات الموجهة للدراسات البينية:

يحذر (البازعي، 2013م، 221) من غياب الضوابط التي تحكم التداخل بين العلوم المختلفة؛ إذ لا ينبغي - بتعبير آخر - فتح باب القول في كل شيء تحت مظلة الدراسات البينية. فهذه الدراسات إذا كانت ضعيفة في بناها الأكاديمية، فإنه يمكن أن تكون غاية في الفوضى إن فتحنا أبوابها دون ضوابط. إن صرامة الحدود الخطابية التي تفصل العلوم، وتحدد مسوغات القول في علم ما لا تعني إلغاء كل الحدود، وتمييع المعالم بحيث يحل الخلط الجاهل محل التمازج العارف. ما نحتاجه إذا هو حدود لينة أو مرنة، لكنها تظل حدودا بمعنى الضوابط الموجودة في بنية كل علم أصلا. ويضيف البازعي: "إن الدراسات البينية ما هي إلا العلوم المستقلة وقد اقتربت من بعضها بعضا وتمازجت، لكنها لم تفقد من ضوابطها العلمية، ومقتضياتها البحثية إلا ما يقتضيه الامتزاج من تصورات مبتكرة لأوضاع استجدت نتيجة للتقارب المشار إليه، وحين تذكر الضوابط والمقتضيات فإنما تشير إلى مسائل إجرائية شائعة في البحث العلمي إجمالا لكن لها خصوصيتها في العلوم الإنسانية. وتلك المسائل معروفة لدى الدارسين، فهي تشمل: القراءة المدققة والمقارنة بين للمعطيات، وإقامة الفرضيات واختبارها، وضبط المراجع وموثوقيتها، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى عرضه كاملا".

وإذا جاز التصور أنه لا مندوحة عن الدراسات البينية باعتبارها مسعى منهجيا لانصهار وتلاشي الحدود بين التخصصات، وجعلها أكثر رخاوة أو سيولة، وأكثر شفافية وقدرة، من ثم - على السماح بامتزاجات معرفية ومنهجية قادمة من تخصصات مجاورة أو حتى غير مجاورة، فإنه ينبغي تجاوز استقلالية العلوم باتجاه اتحادات ذات حدود متساهلة لا تطالب بفحص جوازات السفر وهويات المسافرين، ولا تقيم حواجز تفتيش يسأل فيها العابرون عن مؤهلات أو مسوغات مرورهم. وما نتطلبه هو تجاوز ما أطلق عليه (ميشيل فوكو) فواصل الخطاب، وصرامة التقسيم بين خطابات المعرفة والعلوم المختلفة حتى يتسنى لعالم الاجتماع مساءلة القضايا التاريخية، ويتاح للمؤرخ الدخول إلى معترك البحث الاجتماعي، ويتهيأ لدارس الأدب ميدان الدراسات الإعلامية، وهكذا. صحيح أن هذا متاح، بيد أنه موجود على استحياء، وأخطر من ذلك دون وعي علمي كاف، وهذه المسألة الأخيرة في منتهى الأهمية، وتستلزم توضيح المراد بفتح الحدود، فليس من السهل - بل لا يجوز - أن يلقي كل من هب ودب بتنظير ما أو يتوصل إلى نتيجة ما في علم أو ميدان لم يبذل جهدا في معرفة معطياته وحدوده؛ أي أنه لا ينبغي - بمعنى آخر - فتح باب القول على مصراعيه في كل شيء تحت لافتة الدراسات البينية (البازعي، 2013م، 228).

وفي معرض انتقاده للأخذ بالدراسات البينية في العالم العربي والإسلامي ينبه (البازعي، 2013م، 225) إلى الأخذ في الاعتبار أن الدراسات البينية لا تأتي نتيجة احتياج علمي أو معرفي بقدر ما تنمو نتيجة لكونها حدثت هناك، أي أن حدوثها هناك (أي في الغرب) يستلزم حدوثها هنا (أي في العالم العربي والإسلامي). وأن ما تحتاجه الدراسات البينية هو تلك الروح النازعة للتفكير المختلف، مما يعني النظر في ربط العلوم أو التخصصات المختلفة حسب التجارب العالمية للإفادة منها، مع عدم الوقوف عند تلك الأنماط من الربط سعيا إلى أنماط جديدة، ليس لأنها جديدة أو مختلفة ولكن لأنها قد تكون الأكثر ملاءمة لاحتياجات علمية وبحثية نابعة من صميم الأوضاع الثقافة والاجتماعية، وأكثر كفاءة في التعامل معها (البازعي، 2013م، 227).

وقد أنصبت الفكرة الرئيسة من وراء الانتقادات التي وجهت إلى الدراسات البينية على أنه ومنذ أمد طويل كان أسلوب العلماء هو تجزئة المشاكل وتفتيت العلوم ليجعل ذلك حل المشاكل المعقدة والموضوعات الهامة أكثر سهولة، ولكن هذا الأمر لا يمكن القيام به مع الدراسات التجميعية البينية. والمقصد هنا، هو ألا نعود إلى الدراسات الموسوعية - على علاتها - من باب الدراسات البينية، بل لا بد أن نأخذ في الحسبان مميزات الدراسات البينية ونُعملها في مزجنا للعلوم المتنوعة، كي نخدم بحوثنا العلمية عمقا واتساعا.

رابعا: التكامل المعرفي:

إن التقدم العلمي يؤكد يوماً بعد يوم حقيقة التكامل عبر ما يلاحظ من اتصال وتداخل بين العلوم المختلفة. فالفيزيائي مثلاً إذا كان يحتاج إلى الرياضيات؛ باعتبار أن الفيزياء في بعدها التجريبي رياضيات من حيث تقنيتها، فإن الرياضي لا يسعه غير الاهتمام بـ (الفيزياء الرياضية) التي تحل بطريقة استنتاجية بعض المشكلات المطروحة في حقل الفيزياء. ومثله الكيميائي الذي ليس بمقدوره التقدم دون رفد الفيزياء في حقل اختصاصه. أما عالم الحياة فيحتاج بالضرورة إلى الكيمياء والفيزياء والرياضيات (اليونسكو، 1976م، 2/ 365 - 366).

ونعود اليوم لنرى أن النظرة العلمية التقليدية التي فصلت بين الجمال والحقيقة، والتي عُرفت منذ عصر النهضة الأوربي، تتوارى خلف الاتجاه العلمي الجديد الذي أضحى لا يرى في الجمال إلا وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية، حتى أن (جيمس واتسن) يخبرنا بأن الجمال هو الذي هدى إلى اكتشاف التركيب الجزيئي لحامض (الـ DNA) الذي يقوم بدور مهم في نقل الصفات الوراثية. بل إن أبرز علماء الفيزياء في هذا القرن يجمعون على أن الجمال هو المقياس الأساسي للحقيقة العلمية، لدرجة أنه قُدِّم على التجربة (أغروس وستانسيو، 1989م، 46- 47).

إن الترابط والتكامل بين العلوم الطبيعية والرياضية والحيوية بات حقيقة واضحة، كما أن الترابط والتكامل بينهما وبين العلوم الإنسانية أصبح يعرفه الكثيرون، أما فيما بين فروع العلوم الإنسانية نفسها، فلا أظنه يحتاج إلى مزيد من التأكيد، بل إن الترابط والتكامل بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية والحيوية أخذت تجليه الكثير من الدراسات، فبات من المعروف - ومنذ وقت مبكر - ضرورة أن يكون عالم النفس على دراية بالفسيولوجيا والبيولوجيا والوراثة والإحصاء، فضلاً عن الفلسفة والاجتماع واللغة. (اليونسكو، 1976م، 2/ 364 - 365).

كما أن دراسة التاريخ يمكن أن تستفيد من الجيولوجيا والأحياء، فضلاً عن العلوم الأخرى كالاجتماع والأنثروبولوجيا والنفس والاقتصاد. فتكامل المعرفة ضمن هذه العلوم يتيح للمؤرخ توضيح المتغيرات التي حدثت في الماضي. بل ليمكننا القول بأن المختص في العلوم الإسلامية كالفقيه مثلاً حريٌّ به - إذا كان حريصاً على تحري الصواب في استنباطاته الشرعية - أن يقف على أرض صلبة من المعرفة الإنسانية والطبيعية والطبية، ولو بالقدر الذي يتعلق بالحالات أو الوقائع التي يتصدى لها، لتتلاقى بذلك (الحقيقة الشرعية) مع الحقائق (الإنسانية) و(الطبيعية) و(الطبية) دونما تصادم. حتى الأديب، كيف يمكنه الانعزال عن حقول العلم الأخرى، إنسانية كانت أو طبيعية، إذا أراد أن يصف المشاعر الإنسانية بدقة، ويصور دراما الحياة بشكل فذ؟ (القريشي، 1998م، 101).

وبصورة أكثر بساطة ووضوحا، يمكن القول أيضا؛ أن التكامل بين العلوم يعني أن علما يحتاج إلى أن يتكامل مع علم آخر أو أكثر، من أجل تطويره وتقدمه، أما البحوث التكاملية، فهي نمط بحثي تقوم به فرق بحثية أو أفراد، بحيث يتم تكامل المعارف والمعلومات والبيانات والمناهج البحثية والتقنيات والأدوات والمفاهيم والنظريات، من أكثر من تخصص أو حقول معرفية، لتحقيق معرفة أفضل أو حل مشكلات، والتي لا يمكن حلها من خلال تخصص واحد، أو باتباع منهج بحثي واحد، أو تبني أداة بحثية واحدة.

تطور مفهوم التكامل المعرفي:

العلم لا ينشأ من فراغ، فهو إلى جانب مقاصده ومبادئه وأغراضه ومصادره له جانب تاريخي اجتماعي يترجم له عند أحد مستوياته في تراكم معرفي يتبلور في ظهور الحاجة لتأسيس حقل تخصص جديد يتكون حول بؤرة التراكم (أبو الفضل والعلواني، 2009م، 199).

والتكامل في ميادين المعرفة يتدرج من الخاص إلى العام، فهو يبدأ من تكامل خاص على مستوى المادة العلمية الواحدة، ثم يمضي إلى تكامل عام على مستوى مادتين علميتين: كالفقه والأصول مثلا، ثم يرتقي إلى تكامل أعم بين جميع المواد العلمية التي تنتمي إلى مجال واسع، مثل الفقه والأصول والحديث والتفسير، ثم يصل إلى حد التكامل بين جميع المجالات العلمية (الجابري، 2009م، 150).

أهمية التكامل المعرفي:

التكامل المعرفي على مستوى الموضوع، يتجلى في أن قضايانا اليوم قد شملها الكثير من التداخل بين علوم متعددة، ولم تعد من البساطة بالشكل الذي كانت عليه من قبل، بل صارت القضية الواحدة موضوعًا لأكثر من تخصص في علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والقانون والتربية وغير ذلك من العلوم، ولا يمكن النظر فيها من خلال علم واحد، بل لابد من النظر فيها من خلال كل العلوم المتصلة بتلك القضية، وهذا لن يقوم به إلا جماعة، ويصعب -إن لم يتعذر- أن يقوم به فرد، لأنه ليس بالإمكان أن يجمع شخص واحد بين المعرفة للعلوم الشرعية بالصورة التي اشترطها الأصوليون وبين المعرفة المتخصصة لمشاكل البيئة والعصر، فكان لابد من أن يكون الاجتهاد في هذه القضايا من خلال مجموعة تتكامل فيها الثقافات بحيث يضم مجلس الاجتهاد العلماء المتخصصين في العلوم العصرية إلى جانب العلماء المجتهدين في العلوم الشرعية (عطية، 1976م، 7). فيكمل أعضاء المجلس بعضهم بعضًا، وتحدث الإحاطة بالمسألة من كل جوانبها وملابساتها ومتعلقاتها.

ويمكن التوسع في بيان صور التكامل ليتضمن تكامل جهود العلماء في الأجيال المختلفة، بحيث يبني كل جيل على خبرة الجيل الذي سبقه، حتّى إنّه ليصعب تصور تحقيق إنجازات جيل لاحق لو لم يعتمد على إنجازات الجيل السابق. وكذلك الأمر في تكامل جهود الشعوب والأمم؛ إذ ينبئُنا التاريخ أنَّ حضارة أيَّةِ أمَّةٍ كانت في الغالب نتيجة التفاعل والاستيعاب والاقتراض الثقافي والحضاري من الأمم الأخرى، المعاصرة لها أو السابقة عليها (ملكاوي، 2016م، 56). ومع ذلك فإنَّ التكامل بين العلوم المختلفة لا يعني أنَّها جميعاً في مرتبة واحدة من حيث علاقتها بالحقيقة، أو من حيث أهميتها وأولويتها. فتكامل أعضاء الجسم البشري في أدائها لوظائفها لا تجعل أطراف الجسم في أهمية القلب أو الدماغ مثلا.

التكامل المعرفي في الرؤية أسلامية:

إذا كانت الحضارات القديمة قد عرفت التكامل والتداخل بين المجالات المعرفية، فقد تجلى ذلك بوضوح أيضا في تاريخ الفكر الإسلامي، حيث ساعد ذلك أحيانا كثيرة على وجود علماء موسوعيين جامعين بين علوم متباينة ومعارف وتخصصات مختلفة، مما ساعدهم على إدراك وشائج التعاون والتكامل بين ما يحملونه من معارف وعلوم، إلا أن تقدم الإنسانية واتساع محتوى العلوم القديمة وبروز تخصصات دقيقة تند عن الحصر، قد فرض تقليصا في درجة الاستيعاب والجمع وأوجب تحديدا لمجال التخصص، غير أن تطور الأبحاث العلمية الدقيقة والإنسانية على السواء، ما فتئ يؤكد من جديد ضرورة مراعاة القواسم المشتركة التي توحد أرضية البحث العلمي في كل المجالات اعتبارا أولا لإمكانية (تسليف) مناهج البحث العلمي من مجال علمي إلى مجال علمي آخر، ونظرا ثانيا لوجود مفاهيم ومصطلحات (رحالة) بين حقول معرفية مختلفة، مما يسمح لنا بالقول بأنه مهما بدت عملية إنشاء المعارف وتطويرها محكومة بقطائع وانفصالات، فإن التواصل أو الاتصال والتكامل يبقى عنصرا بارزا في بناء المعرفة الإنسانية. وإذا تحقق هذا التواصل والتكامل بين العلوم الدقيقة فأولى أن يتحقق بين العلوم الإنسانية، وحري أن يتحقق بالتالي بين العلوم الإسلامية (الصغير، 2009م، 120 - 121).

وعطفا على ما سبق، فلا يمكن للعلوم أن تتعارض، لأنها إذا كانت كلها تروم الحقيقة، وتأخذ لها الطرق الصحيحة والمناهج السليمة، فإنها ستنسجم فيما تنتهي إليه من الحقائق، لأن الحق واحد، والحق لا يضاد الحق، وإنما الحق متنوع في وجوهه ومواطنه، فيكون حقا متلوا بطريق الوحي من الحق تبارك وتعالى، ويكون حقا منظورا يكتشفه الإنسان في خلق الله تعالى كلما امتثل أمر ربه عز وجل:{قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: 101]، وأمره تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق: 1]. وإنمـا المطلوب ممن يتولى أمر العلم والبحث العلمي التماس القواسم المشتركة بينها (عكيوي، 2009م، 16).

ومن الشواهد على ذلك أيضا من تاريخ الفقه والحديث ما عرف من أن الفقه كان يتأرجح بين أهل الحديث وأصحاب الرأي، فكان أهل الحديث ينزعون في الغالب نحو فقه المعاني العامة الكلية من غير تعمق، والتحرج من ذكر أحكام لم يرد النص عليها صراحة في الأحاديث، وكان أهل الرأي يتوسعون في تحكيم قواعد الرأي والقياس، لكنه خلاف معتبر بسبب اختلاف مقام كل فريق واختلاف محل النظر والقصد عنده. فالفريق الأول يصرف نظره إلى الحديث رأسا من غير تعريج على ما سواه، والفريق الثاني يتوسع في استحضار مقاصد الحديث وحكمه، وتصور العمل به في الحال والمآل.

وحقيقة الأمر أن كلا المسلكين يكمل الآخر ويتممه، فلا يستغني الفقيه عن نصوص السنة مشفوعة بمراتبها في الصحة والضعف محررة ألفاظها وصيغها ومتونها، ولا يستغني المحدث عن اجتهاد الفقيه وعمق نظره (عكيوي، 2009م، 33).

وفي الجملة فإن مفهوم التكامل المعرفي حاضر بقوة عند علمائنا الأوائل، وهذا ما نجده بارزا عند صاحب المقدمة (عبد الرحمن بن خلدون)، انطلاقا من تصوره للوجود كوحدة متناغمة العناصر، مترابطة الحلقات، تنظمها سنن وعادات مستقرة وقوانين مضطردة تتيح للإنسان القدرة على تعليل تاريخه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والمعرفي تعليل يوقفه على حكمة التدافع في التاريخ ومنطق التكامل في العلوم والمعارف ويمكنه من الاعتبار بالحوادث وإدراك المقاصد والغايات والمآلات (الصغير، 2009م، 101).

إلا أنه من غير الممكن إدراك منزلة التكامل بين علوم الإسلام خاصة، دون الإشارة إلى مظاهر من التأسيس الأولى لمفهوم التكامل داخل بنية الإسلام، هذه البنية التي وسمت بطابعها الخاص كل الإنتاج المعرفي والعلمي في حضارة الإسلام، مثلما صبغت بذلك كل المظاهر الأخرى في تلك الحضارة. ولم يسر مفهوم التكامل بين علماء الإسلام ولم يتشبعوا به ويمارسوه على نطاق واسع سواء في تحصيلهم العلمي أو في تنوع إنتاجهم الفكري والمعرفي إلا لكونهم أدركوا أساسه الفلسفي في بنية الإسلام وفي نصه الأول، القرآن الكريم (أبو ريده، 1983م، 1)، وعلى حد قول (نصر، 1978م، 13) في مستهل كتابه العلم الإسلامي: " ولهذا لا يمكن دراسة العلوم في الإسلام دراسة جادة بدون الإشارة ولو في إيجاز إلى أصول الإسلام، والظروف التي جدت في الزمان والمكان بفضل الإسلام مما أدى إلى ظهور هذه العلوم" ، بمعنى إنه لا يمكن فهم العلوم الإسلامية بدون تفهم للإسلام نفسه، القوة التي أعطت

الحياة لحضارة واسعة النطاق، كانت العلوم إحدى ثمارها، وذلك أن هذه العلوم لم تظهر في الوجود على نحو عارض، بل هي أنشئت على الصورة التي أنشئت عليها لأن الذين أنشئوها كانوا مسلمين يتنفسون في عالم إسلامي.

ثم إن هناك حقيقة غير خافية على أحد وهي أن تمايز موضوعات العلوم الإسلامية لا يمنع البتة من أن يحصل التكامل فيما بينها على مستوى المناهج، ونحسب أن هذه ظاهرة لا تقتصر على العلوم الإسلامية وحدها، وإنما تكاد تشمل كافة العلوم. فقد قرر المتخصصون في المناهج وعلماء البحث المعرفي أن تطور المعرفة إنما هو رهين بقدرة الباحث والعالم على إعمال مجموعة من المناهج لتحصيل المعرفة أو تفكيكها وتحليلها، وأن كل تجديد في المنهج يفتح بابا للإضافة إلى العلم (عطية، 2000م، 42). ولهذا لم يتصور أحد من علماء الإسلام المحققين في العصور المتقدمة أي تنافر بين علوم الوحي وعلوم الكون. بل كانوا يعتبرون تلاقح العلوم ومراعاة العالِم لما عند غيره من العلماء في الفنون الأخرى، أصل معتمد يمكن الاستناد عليه.

تلك بعض معالم فلسفة الإسلام التي أسست الأرضية الفكرية المشتركة لنشأة علوم متعددة متنوعة، ولكنها متداخلة ومتكاملة فيما بينها تداخلا سمح بتضافر مقاصد وتكامل مناهج، وشجع على ترحيل مفاهيم وتسلف مصطلحات دون أن يخلو ذلك الترحل وهذا التلف من مشاكل معرفية وصعوبات علمية وعوائق عملية. وأهم ما يقتضيه مفهوم التكامل المعرفي بين علوم الإسلام امتلاك المعطيات الموضوعية، التاريخية والحضارية، التي تساعد على تصور وتفسير تفاعل تلك العلوم فيما بينها، موضوعا ومنهجا ومصطلحا، الأمر الذي يستوجب الانتباه إلى حالة نشأة كل علم من تلك العلوم وبيان روافده المعرفية وكيفية تشكله ضمن تاريخ العلم، وتكامله مع غيره من العلوم القريبة أو المساعدة (الصغير، 2009م، 107).

ولا نكاد نعثر في تراجم أعلام أهل العلم بالقرآن والحديث والفقه من لم يكن له حظ من الطب والنبات والحساب والهندسة والفلك...، إما حظ تعلم ودرس، أو نصيب مشاركة وتعليم، أو شرف ابتداء وإبداع. ولا نكاد نعثر ـ في مقابل ذلك ـ في تراجم أعلام أهل العلم بالطب والنبات والحساب والهندسة والفلك ونحوها، من لم يكن له حظ من العلم بالقرآن والحديث والفقه...، إما حظ تعلم وحفظ، أو نصيب مشاركة وتعليم وشرح، أو شرف إضافة واجتهاد (النجار، 2009م، 130).

ولهذا لا نجد في القرآن الكريم ولا في الكتب المخصصة لنظرية العلم لفظ التكامل المعرفي بهذا النحت الاصطلاحي، فقد كان التكامل جوهر التفكير لا موضوعا له. إن التكامل إذن جوهر لا عرض طارئ على العقلانية الإسلامية الأصيلة، فالعقل الذي تشكل ابتداء من الوحي كان العلم الدقيق كالطب والحساب داخلا في أركانه (النجار، 2009م، 148).

وقد صدر عام 1991م كتاب بعنوان: (الإبداع والابتكار في العلوم الإنسانية: الهامشية الخالقة). وخلاصة ما انتهى إليه "أن ظاهرة الابتكار والإبداع والتجديد في التنظير والمنهجية في العلوم الاجتماعية كثيرا ما تبرز عند أولئك الذين تجاوزوا حدود تخصصاتهم الأصلية واحتكوا بتخصصات أخرى هامشية" (الذوادي، 1991م، 17). أي: "إن خروج عالم الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس عن مجال تخصصه شيئا ما واحتكاكه عند الهامش أو التخوم بتخصصات أخرى مجاورة، يرشحه أكثر من غيره للمساهمة الإبداعية الابتكارية في علوم الإنسان والمجتمع... فتجاوز العلماء لحدود تخصصاتهم الضيقة من شأنه أن يؤدي إلى ولوج ميادين أخرى، والتلاقح المعرفي بينها، الأمر الذي ييسر عملية الإبداع" (الذوادي، 1991م، 74).

إن الاقتصار على التخصص دون وعي بحقيقة الاتصال والتداخل والتبادل والتكامل بين المعارف والعلوم المختلفة، هو من عوامل تكوين الذهنيّة المحدودة، ومع ذلك لا بد من التأكيد على أن التخصص لازم، وعلينا في الوقت الذي نتخصص فيه في فروع مختلفة أن نحفظ كليتنا الإنسانية والاجتماعية، وأن نبقي نصب أعيننا التكامل المعرفي كهدف نسعى إلى تحقيقه.

وإجمالاً نقول: إنّ تجزئة المعرفة والانحصار في تخصص معين من شأنه أن يؤدي إلى حال من الفراغ الفكري كثيراً ما يدفع بالمتخصص إلى مطّ نطاق تخصصه وتحويله إلى نوع من الأيديولوجيا، التي يُفسّر بها العالم بعدد محدود من المقولات، وهذا في حقيقته -كما يقول (علي، 2005م، 60) - يقود إلى الوقوع في فخ شبه العلم، وهي نتيجة لا يمكن أن تقدم لنا العلماء والمتعلّمين الذين يُعوّل عليهم في مشروع التغيير.

ويمكن القول ـ أخيرا ـ أن الاهتمام الرئيس بالبحوث البينية يدور حول التكامل المعرفي، فالتكامل يعنى حرفيّاً (العمل معاً). والبحوث البينية يقصد بها عملية الإجابة عن سؤال أو حل مشكلة ما، كما أنها بمثابة نمط من البحوث يعتمد على تبني مفهوم (التكامل) وفي سياق البحوث البينية فإن التكامل بمثابة عملية يمكن من خلالها عمل التآلف، والترابط، والمزج بين علمين أو أكثر من خلال الاستفادة من النظريات والأفكار، والمعطيات، والمعلومات، والمفاهيم، والمناهج، والأدوات داخل كل علم من العلوم التي يُستعان بها في الدراسة (عبده، 2016م، 157).

نتائج البحث:

- ✓ إن الثورة العلمية والمعرفية، التي تفجرت مؤخرا، قد أثرت حقا على الفكر والأدب وعلى الحياة بشكل عام، ومن المؤكد أن تأثيرها سيزيد بأسرع وأقوى مما نتخيل مستقبلا، فإذا أردنا لأجيالنا أن ينخرطوا ضمن ذلك الفريق العالمي الذي سيشكل حياتنا في المستقبل القريب، فلا بد أن نرفدهم بمعين لا ينضب من هذه الثقافة العلمية بمجالاتها المتنوعة، وخاصة تلك الدراسات المبنية على العلوم والتخصصات البينية بحقولها المختلفة؛ ليتولد لديهم إحساس حقيقي بأهمية التكامل المعرفي، وتتوفر لديهم دراية بأبعاده وخطورته
- ✓ من الصعب على الإنسان أنْ يجمع بين تخصُّصات مختلفة في وقت تقدَّمت فيه العلوم وتبحَّرت في كل التخصُّصات، ومحاولة المرء الجمع بين أعلى مستويات التعميم وأدنى مستويات التخصص مستحيل، والمصير هو الفشل النبيل والصمت الدائم.
- ✓ يتطلب التأصيل الإسلامي للعلوم البينية ومن ثم التكامل المعرفي توافر الشروط الثلاثة التالية مجتمعة:

1- الانطلاق من إدراك واضح لأبعاد التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والكون المنبثق من الكتاب والسنة، ولما يتضمنه تراث الإسلام مما يرتبط بالتخصص، مع نظرة نقدية لإسهامات علماء المسلمين حول قضاياه.
2- استيعاب العلوم الحديثة في أرقى صورها، مع القدرة على نقدها والاستفادة منها، وتجاوزها بشكل بناء كلما اقتضى الأمر ذلك.
3 - إيجاد تكامل حقيقي بين معطيات التصور الإسلامي من جانب، وبين إسهامات العلوم الحديثة من جانب آخر، وليس مجرد الجمع أو التجاوز المكاني أو حتى المزج بينهما دون وحدة حقيقية.

- ✓ إعادة النظر بالمفهوم الضيق للعلم، واعتماد نظرة شمولية تستوعب كل الأبعاد أيّاً كان التخصص، فالعلوم الحقّة ما هي إلا فروع لشجرة واحدة تستقي جذورها - بتلازم واتساق- من حقيقة الخالق، وما أودع في الكون والإنسان وسائر المخلوقات من سنن وقوانين وحقائق.
- ✓ المعرفة الإسلاميّة لا تنحصر بأيّ حالٍ من الأحوال في المعارف والعلوم الموسومة اليوم بالعلوم الإسلاميّة، ولكنّها تنتظم بجانب تلك العلوم والمعارف كلّ معرفة إنسانيّة تقدّم في إطار من النظرة الإسلاميّة للإنسان والكون والحياة والوجود، انطلاقاً من كون المعرفة الإسلاميّة معرفة أوسع من أن يستوعبها تخصص من التخصصات، أو تقف عند حد فن من الفنون.
- ✓ على الرغم من أهمية التخصصات الدقيقة، إلا أن المعلوماتية والعولمة قد فرضت على العالم المعاصرة متغيرات وتوجهات عديدة منها: ضرورة الاهتمام بوحدة المعرفة، وأهمية تكامل الجهود لتحقيق شمولية الرؤى المستقبلية اللازمة لمواجهة المشكلات والتحديات.
- ✓ التربية جزء من كل. وطبيعة التخصص تغري بالانحياز والرؤية الأحادية. وإزالة الحواجز بين التخصصات والبحث عن نقاط مشتركة مع عدم إلغاء التخصصات هي مهمة لا بد أن يتصدى لها رواد التربية، حتى تصبح جزءا من أي إنتاج معرفي مستقبلي.
- ✓ نوافق على أن ثورة المعلومات، وضرورات تقسيم العمل، ومقتضيات التعمق، استدعت التركيز على التخصص، غير أن كل ذلك لا يعفي من الإلحاح على حقيقة أن أي علم يفرض على صاحبه اتصالاً بالعلوم المجاورة أو المغذية أو المضيئة، حتى إذا ما انكفأ العالِم مدققاً في الظاهرة موضع اهتمامه، أبقى النظر مفتوحاً على سائر الظواهر الأخرى.

توصيات البحث:

- ➢ الواقع والحاجة تتطلب من مؤسسات التعليم العالي والمهني والعام التخطيط لوضع استراتيجيات استباقية لتهيئة التخصصات للدراسات البينية من خلال:

1- إدخال مقرر في كافة التخصصات تحت مسمى الدراسات البينية.
2- تدريس المقررات الدراسية في ضوء الفريق للتقليل من النزعة الفردية في التدريس مما يهيئ الطالب والأستاذ معا لمرحلة الدراسات البينية.
3- تدريس المقررات ذات النزعة المتعددة تدريسا بينيا ومن أستاذين من تخصصين بينيين.
4- فتح الدراسات العليا ذات الاتجاه البيني مع الاستفادة من تجارب الجامعات الغربية العريقة في هذا المجال.

- ➢ من مسؤولية المدارس والجامعات تأهيل الطالب للإبحار في تخصصه بمفرده وذلك من خلال أمرين:

الأول: تعليم الطالب كيفية التعامل مع النصوص الصعبة وكيفية الاستفادة من شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) بالإضافة إلى دلالته على الموسوعات والمراجع الأساسية في تخصصه.

الثاني: التركيز في التدريس في المرحلتين الثانوية والجامعية على ما يمكن أن نسميه (مفاتيح التخصص) أي تاريخه ومسلماته والمنعطفات الأساسية التي مر بها، بالإضافة إلى أهم الأعلام الذين لهم شأن في تطوره، وتوضيح آفاق نموه، ودوره في سعادة البشرية وحل مشكلاتها، ومدى ما يمكن للفرد العادي أن يستفيد منه.

- إنَّ على التعليم الجامعي أن يوضح للطلبة أنَّ الخريجين الذين سيعملون في المهن المختلفة في العقود التي أمامهم من مطلع القرن الحادي والعشرين، أنّ وفرة المعلومات لن تكفيهم. فقد أصبح الحصول على المعلومات ميسراً، وسوف يصبح أكثر يسراً مع تزايد اتجاهات عولمة التعليم العالي. وعندها ستكون الحاجة إلى نوع آخر من المهارة والكفاءة والحكمة؛ إنَّها التركيب والتأليف بين المعلومات المطلوبة في الوقت المطلوب، والتفكير النقدي فيها، ووزن البدائل المحتملة، وعمل الاختيارات الحكيمة. ذلك أننا (نغرق في المعلومات ونموت جوعاً إلى الحكمة).
- ولا ريب أن خروج المرء عن تخصصه الأساسي، يحتاج إلى نوع من إعادة التأهيل المعرفي، وفي ذلك مشقة ومعاناة، لكن هناك ظروفا كثيرة تفرض ذلك، وتستدعيه، ولا بأس في ذلك ما دام سيقدم للناس معارف وأفكارا، هم بحاجة إليها.

المراجع:

أبو الفضل، منى والعلواني، طه جابر. (2009م). نحو إعادة بناء علوم الأمة الاجتماعية والشرعية. مراجعات منهاجية وتاريخية. ط1. دار السلام للطباعة والنشر. القاهرة. مصر.

أبو ريدة، عبد الهادي. (1983م). تجديد المنهج العلمي والمعرفة العلمية على يد علماء الإسلام. بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي حول (العلم في السياسة الإسلامية) إسلام أباد باكستان. 19-25 نوفمبر 1983م. 1- 45.

أبو زيد، أحمد. (1970م). أزمة العلوم الإنسانية. مجلة عالم الفكر. العدد الأول. الكويت. 201- 211.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد. (1983م). رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق: إحسان عباس. ط1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت – لبنان.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على. (1993م). ط3. دار صادر – بيروت. لبنان.

أغروس وستانسيو، روبرت. م وجورج. ن. (1989م). العلم في منظوره الجديد. ترجمة: د. كمال خلايلي. عالم المعرفة. العدد 134. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

الأنصاري، فريد. (1997م). أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي. ط1. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب.

أمين، أحمد. (2012). فيض الخاطر. مؤسسة هنداوي. القاهرة. مصر.

---------. (1969م). فجر الإسلام. ط 10. دار الكتاب العربي. بيروت ـ لبنان.

البازعي، سعد بن عبد الرحمن. (2013م). الدراسات البينية وتحديات الابتكار. مجلة جامعة الملك سعود. م 25. الآداب (2). الرياض. المملكة العربية السعودية. 221 - 230.

--------. (2018م). ندوة بعنوان: الدراسات البينية ومستقبل العلوم الإنسانية. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. على الرابط: https://www.bing.com/videos

الحبيب، بكر تركي. (2006م). استخدام مداخل التكامل المعرفي في التطوير التنظيمي لمنظمات الخدمة العامة. مجلة كلية بغداد للعلوم الاقتصادية الجامعة. العدد 12. 192 - 212.

أنيس وآخرون، إبراهيم. (1972م). المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. ط2. القاهرة. مصر.

باشا، أحمد فؤاد. (1998م). إشكالية التحيز في تاريخ العلم والتقنية. إشكالية التحيز. رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد. ط3. د. عبد الوهاب المسيري (تحرير). المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

باكير، محمود. (2018م). لماذا تطول اضطرابات الشرق الأوسط؟ مقاربة صورية. مجلة المستقبل العربي. المجلد 41. العدد478. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. لبنان. 68 - 86.

بشارة، عزمي. (2018م). تحديات أمام العلوم الاجتماعية والإنسانيات في السياق العربي. المحاضرة الافتتاحية للسنة الدراسية 2018/2017 في معهد الدوحة للدراسات العليا.

بكار، عبد الكريم. (2010م). في إشراقة آية. ط2. مؤسسة الإسلام اليوم. الرياض. المملكة العربية السعودية.

--------. (2007م). وجهتي في الحياة. رؤى وأفكار ومنهجيات آمنت بها. ط1. مركز الراية للتنمية الفكرية. جدة. المملكة العربية السعودية.

--------. (2001م). مدخل إلى التنمية المتكاملة. رؤية إسلامية. ط2. دار القلم. دمشق.

--------. (2000م). فصول في التفكير الموضوعي. منطلقات ومواقف. ط3. دار القلم. دمشق.

بلعقروز، عبد الرزاق. (2020م). هل يمكن للمنهج أن يكون محايدًا؟ دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية. الصادرة عن مركز نماء للبحوث والدراسات. العدد 10. صيف 2020م. 7 - 35.

بلعلي، آمنة. (2017). الدراسات البينية وإشكالية المصطلح العابر للتخصّصات. مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية. الجزائر. المجلد الثاني. العدد الخامس. إبريل 2017م. 267 - 282.

بن الصديق، عبد المنعم. (2013م). مقاربة مناهج البحث العلمي عند المسلمين (الدراسات الإسلامية نموذجا) مجلة الإبصار. تصدرها من طنجة جمعية إبصار للتربية والثقافة والبحث العلمي. العدد الأول. 44 - 51.

بن خود، نور الدين. (2015م). دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب واللسانيات. مركز دراسات اللغة العربية وآدابها. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. المملكة العربية السعودية.

بن نبي، مالك. (1986م). تأملات. دار الفكر. دمشق سوريا.

بوكروشة، حليمة. (2002م). معالم تجديد المنهج الفقهي أنموذج الشوكاني. كتاب الأمة رقم (90 - 91). ط1. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الدوحة - قطر.

الجابري، إدريس نغش. (2009م). التكاملية في العقلانية العلمية الإسلامية. ضمن مجموعة مؤلفين. التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الأسس النظرية والشروط التطبيقية. ندوة دولية برحاب مؤسسة دار الحديث الحسنية بتاريخ 11 - 12 فبراير 2009م. جامعة القرويين. المغرب.

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن. (2017م). الدراسات البينية. مركز الأبحاث الواعدة في البحوث الاجتماعية ودراسات المرأة.

حسن، عمار علي. (2017م). الخيال السياسي. عالم المعرفة. العدد 453. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

الحلوة، نوال. (2020م). كلمة الافتتاح للندوة الدولية لمنصة أريد بعنوان: الدراسات البينية والبحوث العلمية. المنعقد افتراضيا على الزوم. بتاريخ 26/ 6/ 2020م.

خليل، عماد الدين. (1985م). حول إعادة تشكيل العقل المسلم. ط2. كتاب الأمة رقم (4). مؤسسة الرسالة. بيروت – لبنان.

الذوادي، محمود. (1991م). العوامل الذاتية لميلاد الفكر الريادي الخلدوني في ضوء علم الإبداع الحديث. مجلة التجديد. العدد1. رمضان 1417هـ - يناير 1991م.

راغب، نبيل. (2002م). كيف تصبح أديبا؟ مكتبة الأسرة. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة. مصر.

رضا، محمد جواد. (1975م). التربية والتبدل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي. ط1. وكالة المعلومات. الكويت.

روزنتال، فرانتز. (1961م). مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة: د. أنيس فريحة. مراجعة: د. وليد عرفات. دار الثقافة. بيروت - لبنان.

زكريا، فؤاد. (1978م). التفكير العلمي. عالم المعرفة. العدد 3. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

زيدان، عبد الكريم. (1969م). المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. دار عمر بن الخطاب. الإسكندرية مصر.

سايمنتن، دين كيث. (1993م). العبقرية والإبداع والقيادة. ترجمة: د. شاكر عبد الحميد. مراجعة: د. محمد عصفور. عالم المعرفة. العدد 176. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

سعيدان، أحمد سليم. (1988م). مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام. عالم المعرفة. العدد 131. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

شريعتي، علي. (1984م). النباهة والاستحمار. ط1. الدار العالمية للطباعة. بيروت. لبنان.

صالحين، محمد. (2019م). الدراسات البينية تفتح آفاقًا جديدة في البحث العلمي. مقابلة أجراها معه السنوسي محمد السنوسي. بتاريخ 8/ 4/ 2019م. https://islamonline.net

الصغير، عبد المجيد. (2009م). إشكالية مفهوم التكامل المعرفي في الإسلام: بنيتها وتجلياتها. ضمن مجموعة مؤلفين. التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الأسس النظرية والشروط التطبيقية. ندوة دولية برحاب مؤسسة دار الحديث الحسنية بتاريخ 14 - 15 صفر 1430 هـ - 11 - 12 فبراير 2009م. جامعة القرويين. المغرب.

صليبا، جميل. (1967م). مستقبل التربية في العالم العربي. ط2. منشورات عويدات. بيروت. لبنان.

طائفة من المتخصصين. (1975م). دور الجامعات في عالم متغير. ترجمة: عبد العزيز سليمان ود. إبراهيم مطاوع. القاهرة. دار نهضة مصر.

طرشاني، ياسر. (2020م). دور المقاصد الشرعية في تفعيل الدراسات البينية. الندوة الدولية بعنوان: الدراسات البينية في البحوث العلمية. منصة أريد. 26/ 6/ 2020م.

طوقان، قدري حافظ. (1990م). علماء العرب وما أعطوه للحضارة. منشورات الفاخرية. الرياض ـ المملكة العربية السعودية. ودار الكتاب العربي. بيروت ـ لبنان.

عمر، أحمد مختار عبد الحميد. (2008م). معجم اللغة العربية المعاصرة. ط1. عالم الكتب. القاهرة ـ مصر.

عبده، هاني خميس أحمد. (2016م). البحوث البينية وتقدم المجتمعات الإنسانية خلال الألفية الجديدة: تجارب عملية وخيارات مستقبلية. جامعة السلطان قابوس. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية. المجلد 7. العدد3. سلطنة عمان. 155 - 165.

عبد اللاه، عنتر صلحي. (2020). بين التخصصية والموسوعية.. ضرورة الدراسات البينية في عصر التخصصات المنعزلة. جريدة عالم الثقافة ديسمبر. World of Culture (worldofculture2020.com) –

عطية، جمال الدين. (2000). تجديد الفكر الاجتهادي. مجلة المسلم المعاصر. العدد. 96. بيروت. لبنان. 31 - 49.

--------. (1976م). المقال الافتتاحي. مجلة المسلم المعاصر. العدد 7. بيروت. لبنان. 5- 8.

عكيوي، عبد الكريم. (2009م). معالم التكامل المعرفي عند المحدثين. ضمن مجموعة مؤلفين. التكامل المعرفي بين العلوم الإسلامية الأسس النظرية والشروط التطبيقية. ندوة دولية برحاب مؤسسة دار الحديث الحسنية بتاريخ 14 - 15 صفر 1430 هـ - 11 - 12 فبراير 2009م. جامعة القرويين. المغرب.

علي، سعيد إسماعيل. (2011م). أعلام الفكر التربوي الإسلامي. ط1. شركة سفير الدولية للنشر. مصر.

--------. (2010م). مدخل إلى التربية الإسلامية. ط1. دار الفكر. القاهرة.

--------. (1987م). الفكر التربوي العربي الحديث. عالم المعرفة. العدد 113. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

علي، نبيل. (2005). تكنولوجيا المعلومات وتطور العلم. المكتبة الأكاديمية. القاهرة. مصر.

غانم، سلام عبد الله عبد الغني. (2016م). مستقبل الدراسات البينية في العلوم الإنسانية (علم الانثروبولوجيا نموذجا). المؤتمر الدولي العلمي الثالث بعنوان: مستقبل الدراسات البينية في العلوم الإنسانية والاجتماعية. المنعقد في الفترة من 16-15مارس 2016. بجامعة حلوان. القاهرة. 537 - 569.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (1957م). إحياء علوم الدين. دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. مصر.

--------. (1910م). الرسالة اللدنية. المكتبة التجارية. مصر.

غصيب، هشام. (1992م). جدل الوعي العلمي: إشكالات الإنتاج الاجتماعي للمعرفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. عمان. الأردن.

فان دالين، ديوبولد. ب. (1997م). مناهج البحث في التربية وعلم النفس. ط1. ترجمة: د. محمد نبيل نوفل. د. سلمان خضري الشيخ. د. طلعت منصور غبريال. مراجعة د. سيد أحمد عثمان. مكتبة الانجلو المصرية. القاهرة. مصر.

فرج، طريف شوقي. (2005م). ضوابط تناول الإعجاز القرآني والنبوي في العلوم الإنسانية. مجلة المسلم المعاصر. العدد 116. بيروت – لبنان. 21 - 35.

فرج، محمد فتحي. (2021م). جدوى الموسوعية والدراسات البينية في التكامل المعرفي. مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية العلوم الاجتماعية والإنسانية مجلد 1. عدد 1. يناير 2021م. 189 - 223.

فهمي، ممدوح عبد الحميد. (1993م). الانحياز الحضاري الغربي في النماذج الرياضية العددية كمنهج للبحوث في العلوم الهندسية. مجلة المسلم المعاصر. العدد 65 / 66. بيروت – لبنان. 71 - 114.

القريشي، علي. (1998م). العلماء بين عزلة التخصص وتكامل المعرفة. مجلة المسلم المعاصر. العدد 89. بيروت – لبنان. 97 - 106.

القيرواني، ابن رشيق. (1963م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة- مصر.

المسيري، عبد الوهاب. (2005م). رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار. ط1. دار الشروق. القاهرة. مصر.

مفتاح، خالد محمد. (2014م). الدراسات البينية بين العلوم الشرعية والإنسانية. مؤتمر تأصيل العلوم الواقع والتحديات- السودان (الخرطوم). - 11- 13 محرم 1436ه الموافق 4 - 6 نوفمبر 2014م. 1 - 46.

مفتاح، محمد. (1997م). الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي: حالة الثقافة المغربية. ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. ط1. سلسلة ندوات ومناظرات. رقم 61. الرباط. المملكة المغربية.

ملكاوي، فتحي حسن. (2016م). منهجية التكامل المعرفي. مقدمات في المنهجية الإسلامية. ط3. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هرندن ـ فرجينيا ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

--------. (2002م). البحث التربوي وتطبيقاته في الدراسات الإسلامية في الجامعات. مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة). العدد 30. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. 79 - 118.

المهدي، مجدي صلاح الدين. (2019م). مناهج البحث التربوي. دار الفكر العربي. القاهرة. جمهورية مصر العربية.

موران. إدغار. (2004م). الفكر والمستقبل. مدخل إلى الفكر المركب. ط1. ترجمة: أحمد القصوار ومنير الحجوجي. دار توبقال. الدار البيضاء - المغرب.

النجار، زغلول. (1988م). فقه الدعوة ملامح وآفاق. الجزء الثاني. في عمر عبيد حسنة. ط1. كتاب الأمة رقم (19). الدوحة- قطر.

نصر، سيد حسين. (1978م). العلوم في الإسلام دراسة مصورة. نقله إلى العربية: مختار الجوهري. دار الجنوب للنشر. تونس.

النقيب، عبد الرحمن عبد الرحمن. (2020م). الإسهام العلمي التربوي المعاصر الأسس النظرية. ط1. دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.

--------. (1990م). نحو منهجية علمية في البحث التربوي الإسلامي المعاصر. في بحوث المؤتمر التربوي (نحو بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة) الجزء الثاني. عمان - الأردن من 24 - 27 يوليو 1990م. 203 - 242.

اليونسكو. (1976م). الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية. القسم الأول. ترجمة: أنطوان مقدسي وآخرين. مطبعة جامعة دمشق.